

اعلام عرب



المبشئ بن حازم الشيباني
فارس بن شيبان

اهداءات ٢٠٠٠

المهندس/ راداميس اللقانى

الإسكندرية

أعلام العرب

٣١

المثني بن حارثة الشيباني
فارس بن شيبان

بقلم
عفيد محمد فرج

وزارة الثقافة والإعلام
المؤسسة المصرية العامة
للألف والنسخ والطباعة والنشر

الاهداء
إلى روح أبي
في ذكرى وفاته الثانية والعشرين

مقدمة الكتاب

بقلم الدكتور

محمد عبد الفارح حاتم

في هذه المرحلة الحاسمة من مراحل تطور الأمة العربية ،
تحتاج أجيالنا الناشئة الى منهج جديد في الثقافة والعلم ، منهج
يقوم على الاستفادة من التراث المشترك للبشرية من ناحية ، وعلى
توكيد الذات العربية وتثبيت خصائصها الحضارية من ناحية
أخرى .. وذلك أن أمتنا لن تستطيع أن تبارس تأثيرها العالمي
المنشود ، الا اذا استرد شبابنا ايمانه بنفسه .. وجدد معرفته
بتراثه الأصيل .. ومن هنا كان من الضروري أن تتجه عناية
الكتاب والموجهين الى تلك الصفحات المشرفة من تاريخنا القديم
والحديث .. فيقدموها الى الأجيال الناشئة في اطار العظمة الصادقة
التي أحاطت بها والى سيرة الأفضاذ من أبطال الأمة وأعلام تاريخها ..
فيحللون جوانبها ويبينون مواضع العظمة فيها حتى يكون ذلك
كله زادا حيا .. لشباب الأمة في سيره على طريق الثورة والتجديد
والبناء .

والصفحة التي يجلوها اليوم لشباب الأمة العربية العقيدة
محمد فرج صفحة مشرقة عامرة بصور البطولة.. ومظاهر العظمة..
ومواضع الاقتداء .. فهي صفحة فيها من عصر النبوة نور
وقدسينته ، وفيها من عصر الصحابة صدقهم وبلاؤهم وكفاحهم
المريير في سبيل الحفاظ على أمانة الله وأمانة رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، وفيها بعد ذلك الشيء الكثير من آداب الاسلام
وأخلاق رجاله وبطولات قواده .. وهي ليست صفحة المشى
وحده .. ولكنها صفحة من كتاب الأمة العربية والاسلامية ..
جديرة بأن يعيش فيها شباب تلك الأمة بعقله ووجدانه في هذه
المرحلة من تاريخ وطننا .

دكتور

عبد القادر حاتم

مقدمة المؤلف

المثنى بن حارثة الشيباني — موضوع هذا الكتاب — شخصية عربية أصيلة ممتازة ، كان له دور كبير في حياة العرب والاسلام .. دور ملء بالبطولات ، عامر بالأمجاد ، زاخر بالقومية أصيل في أحداثه ووقائعه .

والمثنى قائد عربي له تاريخ عسكري مجيد لم تسلط عليه الأضواء برغم أن بطولاته كانت حديثا على كل لسان وعبقريته لم يختلف فيها مؤرخان .

ولقد كان لقائي مع المثنى في ١٩٥٠ حين كنت أقوم بدراسات لبعض القادة العرب وكان هو أحدهم ولما أصدرت كتابي « جبابرة حرب » احتل المثنى بابا في هذا الكتاب الا اننى أحسست أن بابا من صفحات قليلة يتناول حياة المثنى لا يصور أبدا حياة عربية عريقة مجيدة لبطل مجاهد من أبطال التاريخ الاسلامى ولقائد محارب يحتل مكانة مرموقة في التاريخ العسكرى ، ولهذا قررت أن أعد دراسة متكاملة عن حياة المثنى وأن أنشر هذه الدراسة في كتاب خاص به .

ومنذ هذا التاريخ وأنا أعيش مع المثنى أتلمس أخباره وأبناء حياته ووقائعه وبطولاته وبذلت في سبيل ذلك جهدا أثق كل الثقة بأن القارئ سيشعر به وهو يطالع الكتاب .

وكنت قد تعودت منذ سنوات على أن أنتهى فى شهر رمضان من كل عام هجرى من اعداد كتاب جديد حتى أصبحت متفائلا بهذا الشهر الكريم .. أنتظر أوبته بشوق وحنين ، ولقد أحاطتلى رعاية الله تبارك وتعالى فاستطعت بعد سنوات من الدراسة والبحث والسهر أن أنتهى من كتابة هذا الكتاب واعداده فى رمضان من عام ١٣٨٣ وكم أرجو أن تدوم صلتى بهذا الشهر الفريد فيكون لى معه فى كل عام كتاب جديد .

ولقد تفضل الدكتور عبد القادر حاتم وزير الثقافة والارشاد القومى الذى يقود معركة الثقافة فى بلادنا ويتولى مهمة تحقيق الثورة الثقافية فى عهدنا الثورى بتقديم الكتاب الى القراء فى المنطقة العربية .

وها هو ذا الكتاب بين يدى القراء وغاية ما أرجوه أن آكون قد وفقت فى اعداده بما يهيبء الفائدة المرجوة من اعادة كتابة تاريخنا العربى واحياء تراثنا الاسلامى والله الموفق لما فيه خير البلاد ونفع العباد .

محمد فرج

هاجت لعروة دار الحي أحزانا
واستبدلت بعد عبد القيس همذانا
وقد أرانا بها والشمل مجتمع
اذ بالنخيلة قتلى جند مهرانا
أيام سار المثنى بالجنود لهم
فقتل القوم من رجل وركبانا
سما لأجناد مهران وشيعته
حتى أبادهم مثنى ووحدا
ما أن رأينا أميرا بالعراق مضى
مثل المثنى الذى من آل شيبانا
ان المثنى الأمير القرم لا كذب
فى الحرب أشجع من ليث بخفانا
« عروة بن زيد الخيل »

الباب الأول

بيضة المتنى
قومه ... أهله ... موطنه

ليس في العرب أحد أعز دارا ولا
أمنع جارا ولا أكثر حليفا من شيبان
ابن الأثير

ان البيئة التي نشأ فيها المثني بن حارثة كانت ذات آثار ضخمة كبيرة واسعة عميقة بالنسبة لحياته ونشأته وتكوينه ... فقد أثرت هذه البيئة في أخلاقه وعاداته وصفاته حتى أصبح صورة لأخلاق هذه البيئة وما تتصف به من مختلف العادات .

ونحن حين نتعرض للبيئة التي عاش فيها المثني ونشأ بين أجوائها المختلفة وشب بين عادات قومها لا بد لنا من أن نناقش أمرين هامين ...

الأول : من هم قومه ؟ ، وما صفاتهم وعاداتهم ؟ ، وكيف أثر هؤلاء القوم فيه فجعلوه رجلاً ناجحاً في حياته صاحب ذكرى طيبة بعد وفاته .

الثاني : أين عاش قومه ؟

قومه ...

ينتمي المثني بن حارثة الشيباني الى بنى شيبان .
وبنو شيبان هم أحد فروع بكر بن وائل الذي ينتهي نسبه في ربيعة ، وعندما تناول المؤرخون الأمة العربية بالحديث جعلوها ثلاث طبقات (١) .

(١) يختلف ابن خلدون مع هذا الرأي فيجعل الطبقات الثلاث ...

- . العرب العاربة
- . العرب المستعربة
- . العرب التابعة للعرب .

العرب البائدة .

العرب العاربة .

العرب المستعربة (١) .

ومن العرب البائدة .. دولتا عاد الأولى والثانية .. الأولى قامت بين أحقاف الرمل بين اليمن وعمان الى حضرموت والبحرين وبلاد الشجر ، وكان عاد هو أول من ملك من العرب وطال عمره وكثر ولده واستطال له الملك وخرج أبناؤه غازين فاتحين وامتد ملكهم حتى حدود الشام والعراق فلما عظم أمرهم طغوا وبنغوا وعبدوا الأوثان فبعث الله اليهم رسله فكذبوهم وكان منهم أخوه هود الذى وعظهم فأمن به البعض وهم الخلخاؤ وقومه (وكانت منهم عاد الثانية) والبعض الآخر أبى أن يستجيب الى دعوته فأرسل الله عليهم الريح فقضت عليهم وأنجى الله هودا والذين آمنوا معه .. ومن هؤلاء أيضا ثمود وكانوا يعيشون فى وادى القرى بين الحجاز والشام ، وجاءهم صالح يدعوهم الى عبادة الله ، فعنهم من آمن ومنهم من كذب ... ومنهم أيضا طسم وجديس وكانوا يعيشون باليمامة وثارى الفتنة (٢) بين الاثنيين حتى خرب اليمامة وأصبحت يابا الى أن نزل بها بنو حنيفة ...

(١) ويزيد الألويس البغدادى على هذه الطبقات طبقة رابعة هى ... العرب المستعجمة وسموا بذلك لاستعجاب لغتهم على اللسان المضرى الذى نزل به القرآن .

(كتاب بلوغ الارب فى معرفة أحوال العرب ... ج ١) .

(٢) يمكن الوقوف على أسباب الفتنة وحوادثها بالرجوع الى ما كتبه الطبرى وغيره من ثقافت المؤرخين وعلماء العرب .

ومنهم العمالقة الذين قامت بينهم وبين بنى اسرائيل حروب انتهت باستيلاء بنى اسرائيل على الحجاز فكان لهم يثرب وخيبر ومن بقاياهم بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع .

أما العرب العاربة .. فهؤلاء يعرفون باسم القحطانيين ... وبنو قحطان عاصروا العرب البائدة ولكنهم عاشوا في البادية بعيدين عن مظاهر الملك ، وأعظم رجالهم يعرب بن قحطان الذى انتصر على عاد الثانية فى اليمن وعلى العمالقة فى الحجاز وولى أخويه عاد على جبال الشجر وعمان على أرض عمان ، ومن ذريته ابنه يشجب وحفيده عبد شمس الذى كان يسمى سبأ^(١) وكان له كثير من الولد أشهرهم حمير^(٢) وكهلان ، وظل الملك لأبناء حمير يتوارثونه حتى استقر فى الحرث الرائش وبنيه وهم التبابعة^(٣) .

وتأتى بعد ذلك الطبقة الثالثة من طبقات العرب وهى طبقة العرب المستعربة ... وهم بنو اسماعيل بن ابراهيم الخليل صلوات الله عليه ، وكان اسماعيل عبرانيا فلما نشأ أولاده بين العرب استعربوا ، ولهذا سمو بالمستعربة ، وقصة نزول اسماعيل بمكة

(١) هو صاحب مدينة سبأ وسد مارب ، وهو اول من توج من ملوك العرب .

(٢) أجمع المؤرخون على أنه كان أجمل أهل زمانه وأفرسهم ، وقيل أنه أول من توج بالذهب .

(٣) قيل عن الحرث الرائش أنه راى الناس بالمعطاء وأنه عمر فى الملك طويلا وخلفه أبنه ذو النار ، ثم أبنه عمرو ، ثم تتابع الملك حتى ملكته بلقيس التى تنازلت عنه للملك سليمان ، ثم استعاده التبابعة بعد ذلك .

معروفة تناولتها كثير من الكتب ، فقد هاجر والده به مع أمه الى مكة حيث نشأ وتربى وتزوج احدى نساء جرهم فولدت له اثني عشر ولدا ذكرا ، كان كل واحد منهم أبا لقبيلة ، ثم انقرضوا جميعا ، ولم يبق غير عدنان وبنيه ولهذا تسمى هذه الطبقة بالعدنانية ... وكان العدنانيون يعيشون في نجد وافتقرت عنهم شعوب في الحجاز وتهامة والعراق والجزيرة ، وكان معد بن عدنان قد تزوج بنت الحارث بن مضاض الجرهمي (١) فولدت له نزارا ، وهذا ولد له أربعة كان منهم مضر وربيعة ... أما مضر فقد كانوا أهل الكثرة من بنى عدنان ، وكانت لهم رئاسة بمكة ، وأما ربيعة فكانت ديارهم ما بين الجزيرة والعراق ... ومن ربيعة جاء أسد ابن ربيعة ومنه جديلة ، ومن جديلة بكر وتغلب ابنا وائل ابن قاسط .. ومن بكر جاء ثعلبة الذي كان له أبناء ثلاثة هم شيبان وقيس وذهل .. وشيبان هو الجد الأكبر لصاحب دراستنا المثني بن حارثة الشيباني (٢) .

اذن فالمثني بن حارثة من العرب المستعربة ، وهو في أصله من العدنانيين ، وهؤلاء كما ذكرت المراجع كانوا أهل حل وترحال ، أى أنهم كانوا ينتقلون بخيامهم ، لا مدن لهم ولا ملك ، وانما كانت لهم رئاسة بدوية وظلوا تابعين لغيرهم ، الى أن نبضت عروق الملك في مضر وظهرت قریش بمكة .

(١) جاء في بعض الروايات أن معد تزوج بنت أحد أولاد الحارث .

(٢) المثني بن حارثة بن سلمة بن ضمضم بن سعيد بن مرة ابن ذهل بن شيبان .

وكانت لغتهم عربية وعبادتهم الأوثان يتخذونها من الأحجار والأصل في ذلك أنهم اعتادوا في أسفارهم حمل شيء من أحجار الحرم يطوفون به إذا أحلوا تبركا بالبيت وأدى بهم ذلك الى عبادة الأحجار (١) .

الحروب بين بكر وتغلب وتميم ..

ولا يفوتنا أن نذكر في معرض الحديث عن البيئة التي نشأ فيها المثنى أن خلافا وقع بين بكر وتغلب ابني وائل ، وقامت بينهما الحروب والوقائع حتى كان يوم قضة ، وكانت الدائرة لبكر على تغلب فنفرق هؤلاء على حين انتشرت بكر باليمامة فيما بينها وبين البحرين الى أطراف سواد العراق وناحية الأجلة الى هيت ...

ولا يفوتنا أن نذكر أيضا أن بكر بن وائل — التي يمثل المثنى بن حارثة أحد فروعها — كانت تجاور قبيلة تميم من مضر ، وكثر النزاع بينهما ، وقامت الحروب وتوالت الغزوات ، ويقول المؤرخون ان بكرا كانت هي المهاجمة دائما لكثرة ما كان يلحق بمنازلها من جذب ، لأن أرض تميم كانت تفوقها خصبا ، ولقد اشتعلت الحرب بين القبيلتين اثنتي عشرة مرة فازت تميم بست

(١) يلاحظ أن بعض أسمائهم كانت تضاف الى آلهتهم مثل عبد مناف أو كانت أسماء للحيوانات التي تقع أبصارهم عليها كأسد وثعلبة وقيل لهم « ألم تسموا أبناءكم بشر الأسماء نحو كلب وذئب ، وتسموا عبيدكم بأحسن الأسماء ؟ » ، « فقالوا » انما نسمى أبناءنا لأعدائنا ونسمى عبيدنا لأنفسنا » .

منها ، وبكر بست ، ففازت تميم في يوم النباج وثبتل^(١) ، ويوم
 ذى طلوح^(٢) ، ويوم جدود^(٣) ، ويوم الأياد ، ويوم الغبيط ،
 ويوم شقيقة ، وفازت بكر بيوم فلج ويوم الوقيظ ويوم
 الزويرين^(٤) ، ويوم نعف قشاوة ، ويوم مبايض ، ويوم
 الشيطان^(٥) .

رجالات بكر ...

وكما كانت لبكر أيام جليلة في تاريخ العرب فقد ظهر فيها
 رجال كان لهم مجد كبير وتاريخ مجيد ، ومن هؤلاء مثلاً هانىء
 ابن قبيصة صاحب وقعة ذى قار ، وبسطام بن قيس فارس بنى
 شيبان صاحب القول المشهور « قد علمت العرب أنا بناء بيتها
 الذى لا يزول ومغرس عزها الذى لا يحول لأنا أدركهم للثأر

(١) ثبتل ماء على عشر مراحل من البصرة والنباج موضع
 قريب منها .

(٢) موضع قريب من الكوفة .

(٣) موضع في بلاد بنى تميم بقرب حمراء بنى يربوع به ماء
 يقال له الكلاب وقعت فيه معركةتان ولهذا يسمى البعض يوم
 جدود بيوم الكلاب الأول .

(٤) الزويران بعيان .

(٥) وقع هذا القتال في أيام النبی قبل الهجرة وسببه أن
 الشيطان بلد مخصص لبكر بن وائل ، فلما ظهر الاسلام في نجد
 سارت بكر الى السواد ولحقهم الوباء الذى انتشر أيام كسرى
 شيرويه فعادوا هاربين ونزلوا لعلع وهى مجدبة وبلغ خبر الخصب
 الى بكر فأجتمع رجالها وقالوا « نغير على تميم فان في دين ابن
 عبد المطلب من قتل نفسا قتل بها فنغير هذه الغارة ثم نسلم بعدها »
 وأرتحلوا من لعلع وأغاروا على المكان وانهزمت تميم .

وأضربهم للملك الجبار وأقولهم للحق وألدهم للخصم » ، ومنهم مرة بن ذهل بن شيبان وابنه جساس^(١) وغيرهم وغيرهم من الرجال الأبطال الكماة الذين دحروا الفرس وفتحوا العراق وأفزعوا الأكاسرة . وثلوا عروشهم وحطموا تيجانهم وزعزعوا أيوانهم .

ونحن نسوق الحوار التالي الذى دار فى وجود معاوية ابن أبى سفيان بين رجلين أحدهما عامرى^(٢) ، وثانيهما من شيبان لتؤكد بهذا الحوار كل وصف أردنا أن نلحقه برجال بنى شيبان.. العامرى : أنا أعد لك عشرة من بنى عامر فعد لى عشرة من بنى شيبان .. خذ عامر بن مالك ملاعب الأسنة^(٣) ، والطفيل بن مالك قائد هوازن وفارس قرزل^(٤) ، ومعاوية ابن مالك معوز الحكماء ، وربيعة ابن مالك ، فارس ذى علق^(٥) وعامر بن الطفيل ، وعلقمة بن علانة ، وعتبة بن سنان ، ويزيد ابن

(١) جساس هو قاتل كليب الذى نتجت عن قتله الحرب بين بكر وتغلب فدامت حربا سجالاتا أربعين عاما .

(٢) عامر أفخر هوازن .

(٣) هو عامر بن مالك بن جعفر ويكنى أبا براء ولقب ملاعب الأسنة لقول أوس ابن حجر فيه

يلعب أطراف الأسنة عامر فراح له حط الكتائب أجمع
(٤) هو سيد بنى عامر فى الجاهلية وقرزل هو فرسه الذى اشتهر به .

(٥) ذى علق يوم من أيام عامر بن صعصعة وبنى أسد .

الصعق^(١) ، وأربد بن قيس ، وعوف بن الأحوص .
الشيبياني : خذ قيس بن مسعود رهينة بكر بن وائل ،
وهاني بن قبيصة ، وقبيصة بن مسعود ، ومفروق
ابن عمران ، وسان بن مفروق ، والأصم عمرو
ابن قيس ، وعمران بن مرة ، وعوف بن النعمان ،
والأسود بن شريك ، وبسطام بن قيس .

معاوية : هذان رجلان من غير قومكما عندي يحكمان
بينكما ... عدي بن حاتم الطائي وشريك ابن
الأعور الحارثي ... (للشيبياني) من تعبيء
لعامر بن مالك .

الشيبياني : أصم بن أبي ربيعة الذي قتل في تميم مائة رجل
على دم .

الرجلان : الأصم يرجح .

معاوية : فمن تعبيء لعامر بن الطفيل .

الشيبياني : الحوفزان بن شريك^(٢) .

الرجلان : يرجح الحوفزان .

معاوية : فمن تعبيء لعلقمة بن علاثة .

الشيبياني : بسطام بن قيس .

(١) سمى بالصعق لأن بنى تميم ضربه على رأسه فأدمته
فكان إذا سمع الصوت الشديد صعق وذهب عقله .

(٢) الحوفزان هو الحارث بن شريك وكان رئيسا لبنى شيبان
في يوم جودود .

- الرجلان : يرجح بسطام .
- معاوية : فمن تعبى لعتبة بن سنان .
- الشيياني : مفروق بن عمران .
- الرجلان : يرجح مفروق .
- معاوية : فمن تعبى للطفيل بن مالك .
- الشيياني : عمران بن مرة .
- الرجلان : يرجح عمران .
- معاوية : ومن تعبى لمعاوية بن مالك .
- الشيياني : عوف بن النعمان .
- الرجلان : يرجح عوف .
- معاوية : فمن تعبى لعوف بن الأحوص .
- الشيياني : قيصة بن مسعود .
- الرجلان : يرجح قيصة .
- معاوية : فمن تعبى لربيعة بن مالك .
- الشيياني : هانيء بن قيصة .
- الرجلان : يرجح هانيء .
- معاوية : فمن تعبى ليزيد بن الصعق .
- الشيياني : سنان بن مفروق .
- الرجلان : يرجح سنان .
- معاوية : فمن تعبى لاريد بن قيس .
- الشيياني : الأسود بن شريك .
- الرجلان : يرجح الأسود .

وهكذا رجع الرجلان الحكمان — وهما محايدان — كل
رجال بنى شيبان حتى أنهما قالوا للمعاوية « شيبان أكرم الحيين »
فرد عليهما معاوية قائلاً « وذلك قولى » .

تأثر المثنى بقومه ..

ان هذه الصورة لما كانت عليه بكر بن وائل ولما كان عليه
رجال بنى شيبان تبرز لنا حقيقة البيئة التى عاش فيها المثنى وترعرع
بين رجالها ، فقد كان لهذه البيئة ولهؤلاء الرجال الأثر الفعال فيه
... فى انماء روحه ، ونشوءه على الايمان بالمبدأ ، والتصلب
بالعقيدة ، والجود بالنفس ، والصدق ، والعزيمة ، والصبر ،
والجلد والتحمل ، والشجاعة ، والاقدام ، والقوة ، والتفنن بضروب
الفروسية ، والاستماتة فى الحرب ... هذه الصفات احس بها
الكثيرون من بنى شيبان ولمسوها بصورة واضحة فى المثنى
فجعلوا منه سيدا لهم والتفوا من حوله وأصبحوا فى اشارة بنانه ،
فذفوا بأنفسهم فى المهالك من ورائه فكتبوا لأنفسهم ولزعيهم
وقائدهم المثنى أروع صفحات المجد والبطولة فى التاريخ .

أين عاش بنو شيبان ؟ ..

قلنا ان بنى شيبان يرجع أصلهم الى ربيعة ... وربيعة كانت
أصلاً تسكن فى تهامة ثم قامت الفتن بين قبائلها ودارت بينها حروب
ووقائع فنزل بنو عبد القيس البحرين وكان بها آياد فأجبروهم
على الجلاء ، وغلبت عبد القيس على البحرين فاقتسموها بين

قبائلهم وهي كثيرة على حين نزل آياد في سواد العراق (١) ، ولما تغلبت بكر على تغلب في يوم قضة تفرقت تغلب في البلاد ، وانتشرت بكر بن وائل في اليمامة فيما بينها وبين البحرين الى أطراف سواد العراق ومناظرها وناحية الأبله الى هيت ، وحدهم الهمداني ديارهم فقال انها تبدأ من اليمامة الى البحرين الى سيف (٢) كاظمة الى البحر فأطراف سواد العراق فالأبله فهيت (٣) .

في هذه المنطقة من الجزيرة العربية ، عاش بنو شيبان وكانت هذه المنطقة قريبة من أرض الفرس الذين أقاموا الحاميات للمحافظة على بلادهم ودرء الأخطار التي قد تثيرها القبائل العربية ضدهم.. وأكد أكثر من مؤرخ أن سلطان فارس كان أكثر وضوحا في البحرين وعمان ، وأنه كان من أبناء فارس عدد عظيم استوطن البحرين وعمان ، وعلت كلمته بين أهلها ، وكانت فارس تمتد ابناها هؤلاء بنفوذها وقواتها كلما خشيت ثورة العرب عليها أو محاولة العرب القضاء على سلطانها في ربوعهم .. وكثيرا ما وقع الصدام بين الطرفين .. بين بنى شيبان وبين الفرس .. ومن خلال حوادث الصدام المتكرر أدرك المشنى قوة أهله وجاه قومه وعظمة رجال بنى شيبان ، لقد أصبحوا أصحاب السلطة والجاه في سواد العراق حتى ان ابن الأثير ذكر أن الاسلام جاء « وليس في العرب أعز دارا ولا أمنع جارا ولا أكثر حليفا من شيبان » .

(١) صفة الجزيرة العربية للهمداني ص ١٧١/١٧٢ .

(٢) أي شاطيء .

(٣) المرجع السابق .

واقعة ذى قار ..

ويسجل التاريخ لبنى شيبان موقفهم التاريخي في واقعة ذى قار التي دارت رحاها ضد الفرس ، فقد زلزلت سيوف بنى شيبان ورماحها تاج كسرى وقضى رجال بنى شيبان وأبطالهم على جموع الفرس حتى ان الرسول الكريم قال لأصحابه خلال حديث له عن ذى قار « ان هذا لأول يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبى نصروا » .

ويرجع سبب هذه الواقعة الى أن كسرى غضب على النعمان ابن المنذر ملك الحيرة لأنه قتل عدى بن زيد العبادى الذى كان يعمل كاتباً مترجماً فى بلاطه ، وسعى كسرى الى الايقاع به ، فهرب النعمان الى بنى شيبان ، فأجاره هانىء بن قبيصة بن هانىء ابن مسعود وقال له « لقد لزمنى ذمامك وانى مانعك مما أمنع منه نفسى وأهلى » ، وبعث كسرى بالأمان الى النعمان فذهب اليه ، ولكنه غدر به وخان عهد الأمان له وألقى به بين أرجل القبيلة فرفسته حتى مات ، ثم بعث كسرى الى هانىء يطلب منه أن يسلمه ودائع النعمان التي كان قد احتفظ بها عنده عندما لجأ اليه فأبى هانىء ، وأقسم كسرى بالنار أن يهلك بنى بكر وأحلافهم ، وأثار هذا القسم مشاعر العرب ، فاجتمعوا فى ذى قار وتولى بنو شيبان القيادة فكان هانىء بن قبيصة الشيبانى فى القلب ، وحنظلة بن ثعلبة ويزيد بن مسهر الشيبانى فى الجناحين ، وبدأ القتال وصاح حنظلة فى قومه « يا معشر بكر ان الشباب الذى مع هؤلاء الأعاجم تفرقكم فعاجلوهم وابدءوا بالشدة » وخاطب هانىء قومه بقوله

« يا قوم .. هالك معذور خير من ناج فرور ، ان الجزع لا يرد القدر وان الصبر من أسباب الظفر .. المنية خير من الدنية ، واستقبال الموت خير من استنباره ، فالجد الجد فما من الموت بد » .

ودار القتال بين الطرفين عنيفا قويا لا رحمة فيه .. واتخذت بكر خطة جريئة .. فقطعوا أحزمة رواحل نسائهم حتى يشبتوا دفاعا عن النسوة وانخذل الفرس وانهزموا وفروا .. وأصبح هذا اللقاء من أعظم أيام العرب وتعنى به شعراؤهم .

أخسواه ...

ونحن اذا انتقلنا من هذا المجال الواسع الكبير الى المجال الأصغر الذى عاش فيه المثنى ونعنى به أسرته ، نجد أنه كان له من أبيه حارثة شقيقان هما المعنى ومسعود ، والاخوان نشأ مع المثنى ، وأحاطا به ووقفنا الى جانبه فى كل أعماله ، وأخذنا بنصيب كبير من المعارك التى خاضها وشاركاه فى جهاده الطويل .

كان المعنى ساعده الأيمن فى القتال ، ولمس المثنى شجاعته وبسالته فجعل منه قائدا للخيالة (١) ، شهد معه جسيع معاركه وخاضها الى جانبه ، ومن أشهر عملياته استيلاؤه على حصن المرأة وهو حصن قرب البصرة كان لامرأة تدعى كامورزاد ويقول البلازرى « انها سميت المرأة لأن أبا موسى الأشعري نزل بها

(١) كان يطلق عليها اسم المجردة وهى الكتيبة من الخيالة التى لا مشاة معها .

فزودته خبيصا فجعل يقول « أطعمونا من خبيص المرأة (١) » ...
لقد حاصر المعنى الحصن واستطاع أن يقتحمه وأن يجبر صاحبه
على التسليم .

وكذلك كان مسعود ... جعله المثنى قائدا للمشاة وأسهم في
معظم المعارك وأبلى بلاء حسنا في واقعة الجسر واستمات في القتال
حتى جرح جرحا بليغا ولم يشأ أن ينتظر حتى يندمل جرحه وانما
خرج وهو جريح ليسهم في واقعة البويب ، وجالد فيها وبذل من
الجهد ما يذكر له بالفخر والمجد ... وفي هذه الموقعة استشهد في
سبيل الدفاع عن الاسلام ومن أجل عزة العرب ، ورثاه المثنى
رثاء رائعا حين قال فيه وفي أصحابه الذين استشهدوا معه « والله
انه ليهون وجدى أن صبروا وشهدوا البويب ولم ينكلوا » .

خالسه ...

ومن بين أهل المثنى يبرز اسم عمران بن مرة وهو خال المثنى
وأحد زعماء بنى شيبان كان موضع فخرهم لبطولته وبسالته وعلو
مكانته ورفيع منزلته ، حتى أن أعشى همدان الشاعر العربى
المشهور قال عنه انه « ساد فى الجاهلية وساد فى الاسلام » ...
كان عمران هذا ذا فضل كبير على المثنى فقد رأى فيه المثنى
رجل حرب يحتذى وصاحب بطولة يقتدى .

(١) يذهب البعض الى انها كانت تلقب بالمرأة قبل أن ينعثها
أبو موسى بذلك ، ولعله قد كان لها حصن ولزوجها حصن ، وأريد
التفريق بين الحصنين فقال الناس حصن المرأة وحصن الرجل .

ولابد لنا من أن نسلط الأضواء على امرأة مجاهدة بأسلة فاضلة كان لها أثر كبير في نفس المشنى دفعته بشجاعة الى القتال وهونت أمام ناظريه المصاعب والأهوال وشهدت معه معاركه ونعنى بها سلمى بنت حفصة التيمية زوج المشنى وشريكة حياته ... ولقد قيل انها هاجرت معه الى حيث كان الرسول الكريم صلوات الله عليه فأعلنت اسلامها .. ويذهب المؤرخون الى أنها شاركت زوجها في حروب الردة وفي حروب العراق وعاشت معه حياته الحربية وذقت مرها وأهوالها حتى أنها بعد أن مات عنها المشنى تزوجت من بعده سعد بن أبي وقاص ولم تهجر أرض المعركة وانما عاشت فيها تؤدي دورها في الدفاع عن الاسلام فشهدت مع سعد معركة القادسية .

ولقد كانت المرأة تذكر للمشنى بطولته وشجاعته وقد رموى أنه في خلال معركة القادسية أصيب سعد بمرض منعه من الركوب ولما اشتد القتال تذكرت سلمى ما كان لزوجها الأول المشنى ابن حارثة من مواقف في مثل هذه الأيام وصاحت « وامشاه ... ولا مشنى اليوم للخيل » فلطمها سعد وقال لها « ويلك أين المشنى من هذه الكتيبة التي تدور عليها الرحي ؟ » ، فأشاحت بوجهها وقالت « أغيرة وجينا » فقال لها « والله ما يعذرني أحد اذا لم تعذريني وأنت تريد ما بى » ، وعرف الناس ما دار بين سعد وسلمى ، فأكبروا البدوية الجريئة ، ولم يبق شاعر الا اعتد بها . وكان لها في القادسية موقف آخر يذكر لها بالفخر فقد كان

ضمن جنود زوجها أبو محجن الثقفي وهو فارس مشهور أولع
بالخمر في الجاهلية حتى أنه قال ...

إذا مت فادفني الى جنب كرمة

تروى عظامي بعد موتي عروقها

ولا تدفنتني في القلعة لأنتي

أخاف إذا ما مت ألا أذوقها

فلما جاء الاسلام نزل على حكمه وامتنع عن الخمر الا أنه
ضعف أمام اغرائها فكان يحتسى منها ما يبرد غليله ، وعلم بذلك
عمر فنفاه الى القادسية حيث كان سعد بن أبي وقاص فأمر سعد
بسجنه (١) ... وحدث أن دارت معركة القادسية وهو في سجنه
قسمع صليل السيوف وضجيج المعركة وصهيل الجياد فهاجت
نفسه الى الجهاد وأخذ يردد :

(١) علل المرحوم الدكتور محمد حسين هيكمل حبس أبي
محجن بأن سعد بن أبي وقاص مرض عند بداية المعركة وظل مكبا
على وجهه في صدره وسادة يعتمد عليها ويشرف على الناس من
القصر يرمى بالرقاع فيها أمره ونهيه وحجزه المرض عن كل حركة ،
الا أن بعض المسلمين برموا به وتنددوا بمرضه حتى رددوا ...
تقاتل حتى أنزل الله نصره وسعد بيباب القادسية معصم
فأبنا وقد آمت نساء كثيرة ونسوة سعد ليس فيهن أيم^ة
وبلغ سعدا هذا القول فطلب من جنده حمله الى حيث الجند وقال
لهم « لولا أن عدوكم بحضرتكم لجعلتكم نكالا لغيركم » ، فرأى جنده
ما به من الوجع فعلدوه ، الا أن سعدا أمر بحبس بعض رجاله
وقيدهم في القصر ومن بينهم أبو محجن الثقفي ...
(كتاب الفاروق عمر ج ١ ص ١٦٧) =

كفى حزنا أن ترتوى الخيل بالقنا
 وأترك مشدودا على وثاقيسا
 إذا قمت عنّاني الحديد وأغلقت
 مصاريع دونى قد تصم المناديا
 وقد كنت ذا مال كثير واخوة
 فقد تركونى واحدا لا أخا ليا
 وقد شف جسمى أنى كل شارق
 أعالج كبلا مصمتا قد يرانيسا
 فله درى يوم أترك موثقسا
 ويذهل عنى أسرتى ورجاليسا
 حبسنا عن الحرب العوان وقد بدت
 وأعمال غيرى يوم ذاك العواليسا
 فله عهد لا أخيس بعهد

إذا فرجت الا أزور الخواليسا (١)
 ووصل صوته وهو يترنم بهذه الأبيات الى سلمى ثم أبصرته
 مقدما عليها زاحفا طالبا منها أن تطلق سراحه وأن تفك قيده اذ قد

= ولكن أكثر من رواية تؤكد أن سعدا سجن أبا محجن لشربه
 الخمر حتى أن سلمى سألته في أى شيء حبسه سعد فقال لها
 « ما حبسنى في حرام أكلته ولا شربته ولكننى كنت صاحب شراب في
 الجاهلية ، وأنا أمرؤ شاعر يدب الشعر على لسانى يبعثه على شفتى
 أحيانا فيساء لذلك ثنائى ، لذلك حبسنى أن قلت (وذكر البيتين
 الموضحين في الحديث) ، فتوسطت له عند سعد فقال له . . « اذهب
 فما أنا مؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله » .

(١) في رواية أخرى « لئن فرجت ان لا أزور الحوانيسا » .

ازداد حينه الى المعركة ، واشتدت به الرغبة الى خوض غمارها
والأخذ بنصيبه منها وقال لها « أناشدك الله أن تخليني ، ولك الله
على عهد ان سلمت أن أجيء فأضع رجلى فى القيد ، وان قتلت
استرحتم منى » ، وأحست المرأة بصدق قوله فاستجابت لدعوته
قائلة له « انى استخرت الله ورضيت بعهدك » ، ثم أطلقت وثاقه
وأعطته سلاحه وقدمت له فرس زوجها سعد (١) ، فوثب عليها
وانطلق الى الميدان حتى أتى الناس وخاض غمار المعركة بعزم
وقوة وشجاعة لفتت اليه الأنظار فكان يقصف الأعداء بسيفه
قصفا منكرا ، ولا يلتقى برجل من الأعداء الا قتله ولا يحمل على
ناحية الا هزمت حتى قال الناس « ما هذا والله الا ملك » ،
وحتى أن سعدا — وكان يشرف على المعركة من مكان مرتفع —
قال « الضبر (٢) ضبر البلقاء ، والظفر ظفر أبى محجن ، وأبو محجن
فى القيد » ، ولما انتهت المعركة وهزم الفرس رجع أبو محجن الى
سلمى فوضعتة فى القيد ، وعاد سعد فسألته زوجته كيف كان
قتالهم فأجابها « لقينا ولقينا حتى بعث الله رجلا على فرس أبلق
لولا أنى تركت أبا محجن فى القيد لظننت أنها بعض شمائل أبى
محجن » ، فقالت له « والله انه لأبو محجن » ، ثم روت له ما حدث

-
- (١) كانت تسمى البلقاء .
(٢) الضبر أى الركض .

فأسرع سعد الى حيث أبو محجن وفك قيده وأطلق سراحه قائلاً
« والله لا أجد اليوم رجلاً أبلى الله المسلمين على يده ما أبلاهم (١) ».

يوم الفرات ..

في هذه البيئة عاش المثني واستطاع أن يسجل لنفسه في التاريخ العربي صفحات بطولية مجيدة ، ونحن لا نكون مبالغين في قولنا هذا اذا عرفنا أن اسم المثني ارتبط بيوم هام من أيام العرب هو يوم الفرات ، فالمعروف أن العرب كانوا في جاهليتهم قد اتخذوا من الحوادث الجسيمة تاريخاً لهم كعام الفيل وكحرب البسوس وكيوم داحس والغبراء وغيرها من الأيام الشهيرة التي كان العرب يفتخرون بها ويتغنون بها في شعرهم ، ولقد شاء المثني أن يذكره العرب في جاهليتهم بحادث هام يرتبط بحياته ارتباطاً وثيقاً ، وجاءته الفرصة لتحقيق رغبته وأصبح يوم الفرات حدثاً في تاريخ العرب يرتبط باسم المثني ، ففي هذا اليوم أغار — وكان قد تولى امار عشيرته وأصبح زعيمها بيده مقاليد السلم والحرب — على بني تغلب قرب الفرات وكان يمتطى صهوة فرسه الدليكة التي طار صيتها وورد ذكرها في كثير من الشعر .. وكتب

(١) اختلفت الآراء في هذه الرواية .. قال البلاذري أن زبراء أم ولد سعد هي التي أطلقت ابا محجن .. ولم يذكر ابن كثير في روايته اسم سلمى ... أما الطبري فيروى الرواية كما رويناها ويؤكد أن سلمى هي التي أطلقت ابا محجن ، ويميل الكثيرون الى الأخذ بروايته وقد ذكرها كثير من الكتاب نقلاً عنه مما يؤكد حدوث الرواية كما ذكرناها .

المثنى لنفسه في المعركة تاريخه الذي كان يرجوه ، فقد وفق في قتاله وظفر بأعدائه وانتصر عليهم وقتل رجالهم وأغرق كثيرين منهم في الفرات ، وساق أنعامهم وأخذ أموالهم فقسمها بين أصحابه وكان انتصاره في يوم الفرات أحدوثة الزمان حتى أصبح يوم الفرات حدثا تاريخيا يذكر به العرب أهم أحداثهم وتواريخهم ، وقد تغنى به شاعر بني شيبان فقال :

ومنا الذي غشى الدليكة سيفه

على حين أن أعيا الفرات كتابه

الباب الثاني

بنو شيبان بين الاسلام... والردة

« اذا جاءكم امرائى فأطيعوهم وانصروهم وأعينوهم
على أمر الله وفي سبيله فانه من يعمل منكم
عملا صالحا فلن يضل له عند الله وعندى » .

رسول الله

اسلام بنى شيبان

عاش بنو شيبان فى البحرين .

وذكر البلاذرى (١) أن أرض البحرين كانت من مملكة الفرس، وكان بها خلق كثير من العرب من عبد القيس وبكر بن وائل وتميم ، وكانوا مقيمين فى بلاديتها .

وكان على العرب بها من قبل الفرس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منذر بن ساوى وهو أحد أبناء عبد الله ابن زيد بن عبد الله (٢) .

وتناول الكتاب والمؤرخون ، قصة اسلام بنى شيبان فى كتبهم وتلاحظ من خلال دراسة كتبهم أنهم اتجهوا اتجاهين فى روايتهم لاسلام بنى شيبان ...

وقد رأينا أنه من الأوفق أن نعرض هذين الاتجاهين ...

الاتجاه الأول ...

حينما وصل الجيش الاسلامى بقيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى حدود مكة ، وهنت روح الحرب عند قريش وتملك أهلها الخوف ، وأدركوا أنه لا قبل لهم بمحمد ، وأحسوا بأن اللقاء القادم مع جيوشه لقاء خاسر بالنسبة لهم فهو سيدخل مكة

(١) فتوح البلدان .

(٢) عبد الله بن زيد الأسبندى نسبة الى قرية بهجر يقال لها الأسبند ، ويقال أنه نسب الى الأسبديين ، وهم قوم بالبحرين كانوا يعبدون الخيل .

بجموعة التي زادت على عشرة آلاف شاعت قريش أم رفضت ... سلمت أم قاتلت ... واستسلمت مكة ودخلها الجيش الاسلامي منتصرا ، ثم دارت بعض الغزوات المحمدية بعد مكة كغزوة حنين ضد هوازن ، وغزوة الطائف ضد مالك بن عوف ، وغزوة تبوك ضد الروم ، وبهذه الغزوات انتهت حروب الرسول وتمت كلمة الله في شبه الجزيرة وأقبل سائر أهلها يقدمون الطاعة ويعلمون دخولهم في الاسلام وايمانهم بالدين الجديد وأخذت القبائل العربية تفد الى الرسول ، ويقول في هذا ابن هشام « لما فتح رسول الله مكة وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف وبايعت ، ضربت اليه وفود العرب من كل وجه » وعن ابن اسحاق انه لما افتتحت مكة ودانت للرسول قريش عرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب الرسول ولا عداوته فدخلوا في دين الله كما قال الله عز وجل أفواجا يضربون اليه من كل وجه ، ويقول الله تعالى لنبيه : « اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا (١) » .

وأصبح العام التاسع الهجرى عام خير ويمين وبركة على الجزيرة العربية فقيه جاءت جميع القبائل وتوافد أهل المدن وأظهروا اسلامهم ، وسمى هذا العام بعام الوفود لكثرة الوفود التي جاءت الى الرسول تعلن ايمانها ودخولها في الدين الجديد . وشييان كانت احدى القبائل العربية التي سمعت بالدين الجديد منذ ظهوره وتتبع أخباره منذ بدء الدعوة اليه وكان

(١) سورة النصر ٣/١ .

رجالها يستعرضون في مخيلاتهم أوصاف الرسول وتدور على ألسنتهم ويتجاذبون في أنديةهم أخباره ويذكرون انتصاراته المتوالية في غزواته وسراياه ، وكانت قلوبهم تترتاح ويقوى اعتقادها ويزيد ايمانها ، الا أن شيبان وغيرها من القبائل العربية المنتشرة في أرجاء الجزيرة كانت تتردد في اعلان اسلامها في انتظار موقف قريش ، لأن قريشا كانت لها مكانة مرموقة بين العرب ، هذا فوق أن أهلها كانوا أهل الحرم فلما دخل محمد بقواته وأتباعه مكة ، وأعلنت قريش ايمانها بالدين الجديد ودخلت الاسلام وبايعت محمدا رسولا ونبيا ، كانت الرغبة عند شيبان وعند غيرها من القبائل التي تتوق الى الدخول في الاسلام قد وصلت الى الحد الذى جعلها تنتظر المناسبة التي يستغلونها للتقرب الى محمد عليه السلام لاعلان اسلامهم .

وفي عام الوفود ، أى في العام التاسع الهجرى .. وفد الى الرسول وفد بنى شيبان ، وأسلمت شيبان في هذا العام ، فقد خفق قلبها بالاسلام ، وواتتها الفرصة التي كانت تنتظرها منذ زمن ، فسيرت وفدها من ربيعة وشيبان الى مكة فأسلموا وأقرهم الرسول على ما بأيديهم ولم يؤاخذهم على ما فعلوه قبل اعتناق الدين الحنيف .

ويقول المؤرخون الذين اتجهوا هذا الاتجاه أن المشى ابن حارثة الشيباني كان واحدا من أفراد هذا الوفد ... هو اذن كان من الأولين الذين آمنوا بهذا الدين والذين انتظروا الفرصة المواتية للدخول فيه ... هو اذن قد دخل الاسلام عن ايمان وثقة .

وذكر بعض المؤرخين أن سلمى بنت حفصة زوج المثني كانت معه حين قدم على الرسول وهي بذلك تكون صحابية .
وتقول المراجع التي تؤيد هذا الاتجاه انه بعد أن أعلن بنو شيبان اسلامهم بعث الرسول اليهم العلاء بن الحضرمي ليتولى شئون الدين عندهم ، ويعلمهم مبادئه وأصوله ويفقههم فيه ويؤمهم في صلاتهم ويقضى بينهم بما يقضى به الدين .

الاتجاه الثاني . . .

تقول المراجع التي اتجه أصحابها اتجاهها يخالف الاتجاه الأول أن الرسول بعث في العام الثامن الهجري العلاء ابن الحضرمي (١) الى أهل البحرين يدعوهم الى الاسلام (٢) أو الى دفع الجزية ، وأن العلاء حين قدم الى البحرين وأوضح لأهلها مهمته أسلم الكثيرون الا المجوس واليهود الذين قبلوا دفع الجزية .
ذكر البلاذري أن الرسول عليه الصلاة والسلام بعث بالعلاء ابن الحضرمي الى البحرين في العام الثامن الهجري (٣) ليدعو

(١) اسمه عبد الله بن عماد الخزرجي ، وهو من أصل يمني ، أسلم منذ زمن مبكر ، وأعجب به الرسول لما عرف عنه من حسن الخلق والاقدام والفطنة ، والشجاعة وولاه الرسول قيادة سرية كان خالد بن الوليد أحد جنودها .

(٢) يرى هذا الرأي المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل ، فقد جاء في كتابه الصديق أبو بكر « كان ملك هذه الأنحاء المنذر بن ساوى العبدي نصرانياً دان بالاسلام حين دعاه العلاء بن الحضرمي رسول رسول الله الى البحرين في السنة التاسعة من الهجرة » .

(٣) جاء في بعض المراجع ، أن الرسول وجه العلاء في العام السادس الهجري حين وجه رسله الى الملوك يدعوهم الى الاسلام .

أهلها الى الاسلام أو الجزية ، وكتب معه كتابين أحدهما الى المنذر بن ساوى ، والآخر الى مرزبان هجر ... جاء فى كتاب الرسول الى المنذر « سلام على من اتبع الهدى .. أما بعد ، فانى أدعوك الى الاسلام ... أسلم تسلم يجعل الله لك ما تحب ، واعلم أن دينى سيظهر الى منتهى الخف والحافر » .

فلما تسلما كتابى الرسول أسلما وأسلم معهما جميع العرب فى المنطقة كما أسلم بعض العجم ، وكتب المنذر الى رسول الله يقول « أما بعد فانى قد قرأت كتابك على أهل البحرين ، منهم من أحب الاسلام وأعجبه ودخل فيه ، ومنهم من كرهه ، وبأرضى مجوس ويهود ، فأحدث فى ذلك أمرك » ، فرد عليه الرسول بكتاب قال فيه « أما بعد فانى أذكرك الله عز وجل فانه من ينصح نفسه ، وانه من يطع رسلى ، ويتبع أمرهم فقد أطاعنى ، ومن نصح لهم فقد نصح لى ، وأن رسلى قد أثنوا عليك خيرا ، وأنى قد شفعت فى قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم وانك مهما تصلح فلن نعزلك عن عمك ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية » .

ثم بعث الرسول اليه مرة أخرى بكتاب آخر قال فيه « انى أحمد اليك الله الذى لا اله الا هو ، أما بعد فان كتابك جاءنى وسمعت ما فيه فمن صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذى له ما لنا وعليه ما علينا ، ومن أبى ذلك فعليه الجزية » . أما المجوس واليهود والنصارى فانهم صالحوا العلاء وكتبوا بينهم وبينه عهدا جاء فيه « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما صالح

عليه العلاء بن الحضرمي أهل البحرين .. صالحهم على أن يكفونا العمل ويقاسمونا التمر فمن لم يف بهذا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .. وحدد العهد جزية الرأس بمقدار دينار عن كل حالم ... وجاء في بعض الروايات أن الرسول كتب الى مجوس هجر يدعوهم الى الاسلام ووعدهم ان أسلموا أن يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، فان أبوا فعليهم الجزية من غير أكل لذبائهم ولا نكاح لنسائهم .

وعن ابن عباس كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أهل البحرين حين بعث اليهم بالعلاء بن الحضرمي « أما بعد فانكم اذا أقمتم الصلاة وأتيتم الزكاة ونصحتم الله ورسوله وآتيتم عشر النخل ونصف عشر الحب ، ولم تمجسوا أولادكم فلکم ما أسلمتم عليه ، غير أن بيت النار لله ورسوله وان أبيتتم فعليكم الجزية . وقال العلاء بن الحضرمي في حديث له « بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى البحرين وكنت آتى الحائظ بين الاخوة قد أسلم بعضهم فأخذ من المسلم العشر ومن المشرك الخراج » . وظل المنذر بن ساوى ملكا على قومه بعد اسلامه وظل يدعو قومه بعد اسلامه الى دين الله ، وعاونه في ذلك الجارود بن المعلی العبدی الذى كان قد قدم على الرسول في المدينة وأسلم وتفقه في الدين ، ثم عاد الى قومه يدعوهم الى دين الحق ويفقههم فيه (١) .

(١) المرجوم الدكتور محمد حسين هيكل .. كتاب « الصديق أبو بكر » ص ١٨٥ .

ونستطيع أن نلخص هذين الاتجاهين في الآتى :
(أ) الاتجاه الأول

أن بنى شيبان آمنوا بالاسلام حين سمعوا به فبعثوا وفدا منهم الى النبي في عام الوفود يعلن دخولهم في الاسلام ، فأرسل اليهم الرسول العلاء بن الحضرمى ليعلمهم شئون الدين ويفقههم فيه .

(ب) الاتجاه الثانى

أن الرسول بعث الى بنى شيبان رسالة يدعوهم فيها الى الدخول فى الاسلام أو دفع الجزية وكان رسوله اليهم هو العلاء بن الحضرمى وأن رسالة الرسول هى احدى رسائله التى بعث بها الى الملوك والأمراء يدعوهم الى الدين الجديد .

ونخرج من هذا كله بالحقائق التالية ...

- ١ — أن بنى شيبان دخلوا الاسلام عن ايمان واقتناع .
- ٢ — أن اسلامهم كان فى المدة الواقعة بين العام السادس والعام التاسع الهجريين .
- ٣ — أن المثنى بن حارثة كان من الأولين الذين آمنوا

بالدين وأن زوجه سلمى أسلمت هي الأخرى معه
في وقت واحد .

٤ — أن العلاء بن الحضرمي كان رسول رسول الله الى
البحرين .

٥ — أن من لم يدخل الاسلام من أهل البحرين وهجر قبل
دفع الجزية .

عامل المسلمين على البحرين ...

عين الرسول الكريم العلاء بن الحضرمي على البحرين عاملا له
... وقالت بعض الروايات ان الرسول صلى الله عليه وسلم ولى
مكانه أبان بن سعيد بن العاصي بن أمية ، الا أن بعض الروايات
قالت ان علاء كان على ناحية من البحرين منها القطيف ، وأن
أبان كان على ناحية أخرى ، ولكن الرواية الأولى أثبت وأسلم
وأصدق لأن أبان خرج من البحرين بعد وفاة الرسول وأتى
المدينة ، وسأل أهل البحرين أبا بكر رضى الله عنه أن يرد العلاء
عليهم ففعل ، ويقال ان العلاء بقى واليا على البحرين حتى توفي
بها سنة ٢٠ هجرية .

وذكرت بعض المراجع أن عمر ولى أبا هريرة البحرين قبل
موت العلاء الذى هاجر الى مكان فى أرض فارس وعزم على
المقام بها ، ثم عاد الى البحرين حيث مات ، وقال أبو هريرة « دفنا
العلاء ثم احتجنا الى رفع لينة فرفعناها فلم نجده فى اللحد » .
وقال أبو مخنف ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه استدعى
عامله على البحرين وهو العلاء بن الحضرمي ، وولى مكانه عثمان

ابن أبي العاصي الثقفي ، فلما قدم العلاء ولاءه عمر البصرة مكان عتبة بن غزوان ، فلم يصل إليها حتى مات في سنة ١٤ أو في أوائل سنة ١٥ هجرية ، ثم ولى عمر قدامة بن مظعون الجمحي جباية البحرين وأبا هريرة الأحداث والصلاة ثم عزل عمر قدامة لشربه الخمر وولى أبا هريرة ، ثم عزله وقاسمه ماله ، ثم عين عثمان ابن أبي العاصي على البحرين وعمان ، وحدث في ذلك القاسم ابن سلام عن يعقوب بن اسحاق الحضرمي أن أبا هريرة عندما قدم من البحرين قال له عمر « يا عدو الله وعدو كتابه أسرفت مال الله » فقال « لست عدو الله ولا عدو كتابه ، ولكن عدو من عاداهما ، ولم أسرق مال الله .. » قال « فمن أين اجتمعت لك عشرة آلاف درهم ؟ » .. قال « خيل تناسلت وعطاء تلاحق وسهام اجتمعت » .. فقبضها منه عمر .

... الردة

منى الاسلام بفتنة عظمى بعد وفاة النبي ، ولو لم يتول أبو بكر الصديق اخمادها وقت ظهورها لعمت مصيبتها وفتكت بالاسلام ، ولكن حكمة أبي بكر وحزمه حالاً دون أن يصاب الاسلام بنكسة خطيرة ، وأن يتفرق أمر المسلمين ، فما أن انتشر خبر وفاة الرسول حتى انتشر المنافقون ومن في قلوبهم مرض يحرصون على الردة وترك الاسلام ، وكثر المستمعون لهذه الدعوة وانقسموا قسمين .. قسم خرج عن الاسلام بالمرّة .. وقسم ظل على اسلامه ولكنه غطل شريعة الزكاة .

وكان سبب ارتداد كثير من العرب أنهم كانوا يرون أن الرسول حتى خالد لا يموت ، وأنه سفير الله إليهم يبلغهم أوامره ونواهيته ، وأنه معصوم من الموت ، فلما انتقل الى جوار ربه طاش صوابهم ، واستغل بعض الطامعين في الملك والسلطان الفرصة ، فأخذوا ينشرون الفتن ويعلنون ظلماً أن قريشاً تريد أن تستعبد الناس ، وأن تجعل النبوة ملكاً لها تتوارثه في أبنائها ، وكان أصحاب الفتنة يرددون قول الخطيل بن أوس ...
أطعنا رسول الله ما كان بيننا

فيا لعباد الله ما لأبي بكر
أيورثها بكرا اذا مات بعده

قتلك لعمر الله قاصمة الظهر
واختلفت الآراء بالنسبة للردة ، فعمر كان يرى محاربة الذين ارتدوا عن الاسلام وتركوه ، وكان يعارض محاربة الذين منعوا الزكاة استناداً الى قول الرسول الكريم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله ، فاذا قالوها عصموا مني مالههم وأنفسهم » .

ولكن أبا بكر كان له رأى آخر يتعارض مع رأى عمر ، اذ كان يرى عدم التفرقة بين الطائفتين ، ويدعو الى محاربتهم معا « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة .. والله لو منعوني عناقاً أو عقمال بعير كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم على منعها » .

ووافق عمر على رأى أبي بكر وقال « فوالله ما هو الا أن رأيت أنه قد شرح الله صدرى لما قال أبو بكر فعلت أنه الحق . »

الردة في البحرين ٠٠

كان للبحرين نصيب في الردة . فبعد وفاة الرسول بقليل مات المنذر بن ساوى ، وبموته ارتدت قبائل المنطقة من ولد قيس بن ثعلبة بن عكابة ، وارتدت بكر ابن وائل من بنى ربيعة .

أما بنو عبد القيس فلم يلبثوا أن رجعوا الى الاسلام بفضل الجارود بن المعلى العبدى الذى ناقشهم فى أمر دينهم وعاب عليهم ردتهم وأخذ يدعوهم بالحسنى حتى عادوا ... لقد قال لهم « هل تعلمون أن الله بعث أنبياء قبل محمد ؟ » ، قالوا « نعم » ، قال « هل تعلمون أنهم أحياء أو ماتوا ؟ » ، فقالوا « لقد ماتوا » ، قال « ان محمدا مثلهم قد مات وأنا أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله » فرجعوا معه الى الدين وهدأت ثورتهم . أما زعيم بنى بكر فكان الحطم بن ضبيعة (١) ، وكان جبارا غاتيا فأعلن ارتداده عن الاسلام ، وأخذ يدعو الى قتال أبى بكر والى منع الزكاة ، واجتمع حوله عدد كبير ، فسار بهم الى قطيف وهجر ، وهناك التقى برجال الجارود وكانوا — كما ذكرنا — ثابتين على اسلامهم فأذاهم .

وكان لابد لأبى بكر من أن يجعل للبحرين نصيبا من الحرب التى قررها ضد المرتدين والتى عرفت فى التاريخ الاسلامى باسم حروب الردة ويشير المرحوم محمد حسين هيكلى فى حديثه (٢)

(١) سعى الحطم بقوله « قد لفها الليل بسواق حطم » .

(٢) كتاب « الصديق أبو بكر » .

عن حروب الردة الى حرب المرتدين في البحرين فيقول « ليس عجيبا أن تكون هذه البلاد آخر من دان بالاسلام على عهد رسول الله في عام الوفود ، وأن تكون أول من ارتد حين قبض ثم تكون آخر من يعود الى الاسلام بعد حروب طاحنة تختتم حروب الردة وتعيد الى البلاد العربية وحدتها الدينية وتقيم فيها الوحدة السياسية » .

واختلفت الروايات في الموعد الذي نشبت فيه حرب الردة في البحرين ... هل كانت في السنة الحادية عشرة للهجرة ، أم في السنة الثانية عشرة ... وهذا الاختلاف لا أثر له لأن المعروف أن حروب الردة بدأت واستمرت متصلة منذ بيعة أبي بكر الى أن انتهت باذعان جميع القبائل في الجزيرة .

وعندما فرغ المسلمون من حرب المرتدين في بنى أسد وبنى تميم وفي ربوع اليمامة اتجهت النية الى حرب المرتدين في جنوب الجزيرة العربية وكان أمامهم طريقان ..

الأول: البدء بالبحرين ثم السير فيها الى عمان ومهرة واليمن .

الثاني: البدء باليمن ثم كندة فحضر موت ثم البحرين . فرأى المسلمون أن يبدأوا بالبحرين لأنها كانت تجاور اليمامة حيث انتصروا في موقعة عقرباء وانتصارهم هذا له أثره في أهل البحرين ، هذا فوق أن البدء بها كان أدنى الى فوز يجر وراءه فوزا مثله في جميع البلاد التي تجاورها .

لواء العلاء بن الحضرمي . .

كان أبو بكر قد عقد أحد عشر لواء لأحد عشر قائدا وأسند إليهم مهمة القضاء على الردة ، وكان أحد هذه الألوية بقيادة العلاء بن الحضرمي ، وكانت وجهته البحرين ، وبعث أبو بكر الى المرتدين خطابا مع قادة الألوية جاء فيه (١) « قد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد أن أقر بالاسلام وعمل به اغترارا بالله وجهالة بأمره واجابة للشيطان .. واني بعثت اليكم (فلانا) في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين باحسان وأمرته ألا يقاتل أحدا ولا يقتله حتى يدعوه الى داعية الله ، فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحا قبل منه وأعانه عليه ، ومن أبى أمرت أن يقاتله على ذلك ثم لا يبقى على أحد قدر عليه ، وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتلة وأن يسبى النساء والذراير ، ولا يقبل من أحد الا الاسلام .. » .

حصار الجارود . . .

قلنا ان المنذر بن ساوى مات في الشهر الذي مات فيه الرسول ، وارتد على أثر موته أهل البحرين جميعا عن الاسلام ، وفر العلاء ابن الحضرمي كما فر غيره من رسل النبي في البلاد التي ارتدت واستطاع الجارود العبدى أن يبقى على اسلامه ، كما استطاع أن يعيد قومه الى الاسلام فثبتوا عليه بعد ردتهم ، الا أن بنى عبد القيس ظلوا على ردتهم وتزعمهم في ذلك كما سبق القول

(١) الطبرى .

الحطيم بن ضبيعة ورد هؤلاء الملك الى آل المنذر ، وجعلوا المنذر ابن نعمان بن المنذر ملكا عليهم وسموه الغرور .

خرج الحطيم الى القطيف وهجر وضم اليه بعض أهلها ، ثم من لم يكن قد دخل في الاسلام أصلا ، وحاصر الحطيم الجارود ومن معه في ناحية جوائى مؤيدا من فارس وبلاطها .. وظل على حصاره للجارود ومن معه حتى اشتد عليهم الجوع وكادوا يهلكون (١) ، ورغم هذا ظلوا على ما هم عليه من الاسلام ، وهانت عليهم الحياة في سبيل تمسكهم بدينهم .

تحرك العلاء الى البحرين *

تحرك لواء العلاء الى البحرين ، وانضم اليه حين مروره باليمامة نفر من مسلمى بنى حنيفة بقيادة ثمامة بن أثال الحنفي ولحق به أيضا قيس بن عاصم المنقري (٢) في قومه ، وكثير من أهل اليمن ومن سائر القبائل التي شعرت بقوة المسلمين وأدركوا أن سلطانهم لا محالة عائد .

سلك أبو العلاء بالناس مغاور الدهناء الى غايته ، فلما جن الليل أمر الناس بالنزول حتى لا يضلوا في تيه الصحراء .. وذكرت

(١) في ذلك يقول عبد الله بن حذاف الكلابي :
الا أبلغ أبا بكر ألوكا وفتيان المدينة أجمعينا
فهل لك في شباب منك أمسوا أسارى في جوات محاصرنا
(٢) كان قيس قبل أن ينضم مع قومه الى العلاء فيمن منعوا
الزكاة وردوا الصدقات الى الناس فلما مر العلاء باليمامة بعد
انتصار خالد عاد قيس فجمع الصدقات وساقها الى العلاء وخرج
معه الى قتال أهل البحرين .

بعض المصادر أن القوم بعد أن نزلوا فرت ابلهم منهم وتفرقت في الصحراء وهي حاملة الماء والزاد ، وارتاع الرجال لما حدث حتى أنهم أيقنوا الموت ، وأوصى بعضهم الى بعض ، الا أن العلاء أعاد اليهم هدوءهم بثقته في نفسه وايمانه العميق بالله فقد تساءل « ما هذا الذى ظهر فيكم وغلب عليكم ؟ » فأجابه الناس « كيف نلام ونحن ان بلغنا غدا لم نتحَمَّ شمسهُ حتى نصير حديثنا » فرد عليهم « أيها الناس لا تراعوا ! ألستم مسلمين ! ألستم فى سبيل الله ! ، ألستم أنصار الله ! » قالوا « بلى » قال « فأبشروا فوالله لا يخذل الله من كان فى مثل حالكم » ، وفى الصباح التالى صلى الناس الفجر واستغرقوا فى الدعاء فلاح لهم سراب وقال رائدهم انه الماء فذهبوا اليه ^(١) فشربوا واغتسلوا ، ثم جاءتهم ابلهم من كل صوب .

وبلغ الجيش الاسلامى البحرين .

وبمجرد وصوله أرسل العلاء الى الجارود — وكان ما زال محاصرا هو وقومه يثد من عزيمته ، ثم أخذ يبحث الموقف فوجد أن مواجهة المرتدين أمر عسير ، فأمر بحصارهم ، واستمر الحصار شهرا وخندق كل فريق على نفسه وكانوا يتبادلون القتال فى النهار ثم يعودون مع الليل الى الخنادق .

(١) ابدت بعض المصادر الشك فى هذه الرواية ، ولكن يقطع بصدقها الكتاب الذى بعث به العلاء الى أبى بكر بعد انتصاره وسيأتى ذكره فى حينه . وجاء فى بعض المصادر أن أبى هريرة وصاحب له عادا الى المكان الذى كان به الماء ، فلم يجدا به ماء . وذكر البعض أن ذلك كان آية من آيات الله .

انتصار المسلمين ...

وفي احدى الليالى جاء نصر الله ...

فقد سمع المسلمون في عسكر المرتدين ضوضاء وجلبة فبعث العلاء بعيونه تأتية بالخبر اليقين ، فجاءته الأنباء بأن القوم قد سكروا حتى فقدوا السيطرة على أنفسهم ، وأن الواحد منهم لا يملك دفاعا عن نفسه ، فخرج المسلمون من خندقهم وهاجموا مواقع المرتدين ، ووضعوا فيهم السيوف وجعلوا يقتلون كل من أصابوا ، وكان ممن قتل الحظم اذ وجده قيس بن عاصم ملقى على الأرض فقتله ، وفي قتله يقول مالك بن ثعلبة العبدى ...
تركنا شريحا قد علتة بصيرة (١)

كحاشية البرد اليماني المحبر

ونحن فجعنا أم غضبان بابنها

ونحن كسرنا الرمح في عين حبتر

ونحن تركنا مسمعا متجدلا

رهينة ضبع تغتريه وأنسر

وقتل المنذر (٢) وأسر في المعركة عفيف بن المنذر الغرور ، فلما

مثل بين يدي العلاء قال له « أنت غررت بهؤلاء » فأجاب بعد أن

(١) البصيرة من الدم ما وقع في الارض .

(٢) اختلفت الروايات في موت المنذر

— قيل انه نجا ولحق بمسيلمة ثم قتل معه .

— وقيل انه قتل يوم جواثى .

— وقيل انه استامن ثم هرب فلحق وقتل .

أعلن اسلامه قائلاً « أنى لست بالغرور ولكنى المغرور » فعفا عنه العلاء .

ولقد ذعر المرتدون واضطربوا وفروا الى جزيرة دارين (١) ولحق بهم بعض من المسلمين الذين عبروا البحر خلفهم سباحة وقتلوهم حتى ظفروا بهم ولم يبق بالجزيرة ملجأ لمرتد ، وتقول الروايات ان المسلمين لم يجدوا سفناً يركبونها لتذهب بهم الى الجزيرة فنهض فيهم العلاء وقال « ان الله قد جمع لكم أحزاب الشياطين وشرد الحرب في هذا البحر ، وقد أراكم الله من آياته في البر لتعتبروا بها في البحر فانهضوا الى عدوكم ثم استعرضوا البحر اليهم فان الله قد جمعهم » ، فأجابوا قائلين « نفعل ولا نهاب بعد الدهناء والله هو لا ما بقينا » .

وعندما وصلوا الى شاطئ البحر اقتحموا على الخيل والبغال والجمال ودعوا الله فاذا بهم يجتازون البحر على رملة ميثاء فوقها ماء يعمر أخفاف الابل (٢) .

وغنم المسلمون مغانم كثيرة من مال وسبى حتى أن نقل الفارس بلغ ستة آلاف والراجل ألفين ، ويقول في ذلك عفيف ابن المنذر ...

(١) إحدى جزر الخليج الفارسي في مواجهة البحرين .
(٢) جاء في بعض الروايات أن من أنضم الى المسلمين من أهل المنطقة أعاروهم سفناً عبروا بها البحر .
وتجرى رواية بأن المسلمين لم يذهبوا الى جزيرة دارين ، وإنما بقيت الجزيرة على عزلتها حتى عهد عمر بن الخطاب فعادت في هذه الى الاسلام .

ألم تر أن الله ذلل بحمره
 وأنزل بالكفار إحدى الجلائل
 دعونا الذى شق البحار فجاءنا
 بأعجب من خلق البحار الأوائل
 ولما تم النصر للمسلمين كتب العلاء الى أبى بكر الصديق
 « أما بعد فان الله تبارك وتعالى فجر لنا الدهناء فيضا لا ترى
 غواربه ، وأرانا آية وعبرة بعد غم وكرب لنحمد الله ونمجده ،
 فادع الله واستنصره لجنده وأعوان دينه » .

فلما قرأ أبو بكر كتاب العلاء أخذ يحمد الله ويقول « ما زالت
 العرب فيما تحدث عن بلدائها تقول ان لقمان حين سئل عن
 الدهناء أيجترقونها أو يدعونها نهاهم وقال لا تبلغها الارشية ،
 ولم تقر العيون وأن شأن هذا الفيض من عظيم الآيات وما سمعنا
 به في أمة قبلها (١) .

••• دور المثنى

ترى ماذا كان موقف المثنى في هذه الحرب ؟
 هل ارتد وبقى على رده ؟
 هل ارتد ثم عاد مع من عاد الى الاسلام ؟
 هل بقى على الاسلام ولم يرتد أبدا ؟
 ان الايمان القوى الراسخ فى صدر المثنى هو الذى حدد
 موقفه من الردة والمرتدين ، فقد أبى عليه هذا الايمان أن يعود

(١) تاريخ الطبرى .

أدرجه الى الجاهلية وهو الذى آمن عن عقيدة وعن شعور وعن ثقة فى أن الاسلام هو الدين الحى الذى بعث به الله تبارك وتعالى الى الناس جميعا ، وجعله خيرا للبشرية كلها ، ولهذا رفض المثنى كل دعوة الى الردة فى صدق واصرار وعزيمة ...

ولم يكن موقفه من الردة سلبيا وانما اتخذ موقفا ايجابيا فقد صمم على أن يدافع عن الدين الذى آمن به ودخل فيه ، ولهذا جمع الجموع وانضم بها الى جيش العلاء بن الحضرمى ، ودعا أهله من بنى شيبان ليقبوا على دينهم وليخرجوا مع الخارجين لمحاربة المرتدين ولصيانة الدين .

وما ان تم للعلاء الانتصار على المرتدين فى خندقهم — كما روينا — حتى أسرع المثنى على رأس جيش كبير العدد ونشر جنده على طول ساحل البحر ليصد المنهزمين الفارين عن ركوبه ، وفنك بهم فتكا ذريعا ، ويرجع اليه فضل الانتصارات الكبيرة التى أحرزها المسلمون على طول خليج البصرة .

واستطاع المثنى أن يستولى على القطيف ، وأن يصل بقواته الى دلتا الفرات مهددا دولة الفرس التى كانت تسند القوات المرتدة بقيادة الحطم ، وتأييدها وتعينها على ردتها ، وتمكن المثنى من مقاومة دسائس الفرس ومن القضاء على أنصارها من مختلف القبائل .

ولقد كان اتصاله بأرض العراق ودعوته هناك الى الاسلام بداية ومقدمة لفتح العراق وضمه الى الدول الاسلامية ، كما سيأتى ذكره فيما بعد .

الباب الثالث

أرض السواد وأحميرة بين غارات المثني وقتل خالد

- أبو بكر - من هذا الذي تأتى أخبار وقائمه
قبل معرفة نسبه ؟
- قيس بن عاصم - هذا المثني بن حارثة الشيباني ...
رجل غير حامل الذكر ولا مجهول
النسب ولا ذليل العماد .

أرض السواد ...

قلنا ان المثنى بن حارثة تقدم بقواته التي بلغت الآلاف من بنى شيبان حتى وصل الى أرض السواد .

وأرض السواد هذه يقصد بها أرض العراق .

وسميت بأرض السواد لأن العرب كانوا اذا خرجوا من أرضهم التي لا زرع فيها ولا شجر ، وقعت أبصارهم على خضرة الزرع والأشجار والنخيل في أرض العراق فأطلقوا عليها أرض السواد لخضرتها بالزررع والأشجار ، وكان العرب يسمون الأخضر سوادا والسواد أخضرا ، وفي ذلك يقول الفضل ابن العباس بن عتبة بن أبي لهب وكان أسود ...

وأنا الأخضر من يعرفني

أخضر الجلد من نسل العرب

وكان العرب يحددون أرض السواد من حديثة الموصل الى عبادان طولا ، ومن العذيب بالقادسية الى حلوان عرضا (١) .
اذن كان العرب يرون في أرض السواد بلادا أسبغ الله عليها من الماء والخضرة ما صيرها بهما جنة الفردوس .

(١) حديثة الموصل كانت بلدة على دجلة قرب الخراب الاعلى .
العذيب موضع يبعد عن القادسية أربعة أميال .
حلوان هي آخر حدود السواد بقرب الجبل ولم يكن للعراق مدينة قرب الجبل غيرها وهي الآن تابعة لایران في شرقى خانقين .

وكانت السواد مستعمرة فارسية رغم أن كثيرا من العرب يعيشون فيها ، ولهذا كانوا يرونها عربية يجب أن تكون تابعة للعرب دون الفرس ، ومن هنا بدأ التفكير جديا في انقاذها من أيدي الفرس وشغل أمر انقاذها القائد العربي المشنى بن حارثة ، فأخذ يبحث ويدرس الوسائل التي تحقق أمله الكبير في ضم أرض السواد الى سلطة العرب ، ونشر الراية العربية فوق هذه الأرض .

مملكة الفرس . . .

المعروف أن مملكتي الفرس والروم كانتا أعظم الممالك المجاورة للعرب ، وكان ملوك الدولتين من الطغاة الذين استعبدوا الناس وأذلّوهم .

ورأى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدعو ملكي الفرس والروم الى الاسلام فأرسل اليهما برسائله ، وعندما تلقى ملك الفرس وامبراطورهم كسرى أبرويز كتاب الرسول الكريم مزقه استكبارا وجبروتا وبعث الى عامله في اليمن ويدعى باذان أن يرسل من عنده رجلين جليدين الى محمد فيأتيا به ، وثقذ باذان أمر مولاه ، فلما دخل الرجلان المدينة وكلمهما رسول الله وحدثهما عن الاسلام ودعاهما اليه ، وأبان لهما أن عاقبة الظلم وخيمة ، وأن كسرى ظالم قد علا في الأرض وطغى ، وأن الله قد انتقم منه وسلط عليه ابنه شيرويه فقتله — وكان الأمر كما أخبر رسول الله وتحقق منه الرجلان — أسلم الرجلان .

ولما تولى الأمر في بلاد الفرس شيرويه بعث الى باذان
الا يتعرض للرسول العربى ، وكان ذلك بدء نشوء الاسلام فى
اليمن اذ أعلن باذان اسلامه فأبقاه الرسول على امارته ، وكانت
اليمن بذلك أول بلد خاضع للفرس يدخل الاسلام وتبعه البحرين
وبلاد عمان ، ولم تحاول الفرس استرداد هذه الامارات بعد
انفصالها عن سلطانها لأنها كانت تشكو حالة من الضعف نتيجة
لهزيمتها أمام جيوش هرقل فى نينوى ودستجرد (١) .

ولما مات الرسول وتولى أبو بكر الخلافة ثم انتهى من فتنة
الردة وأرجع العرب الى دين الله ، ووطد قواعد الاسلام فى الجزيرة
تطلع الى أرض السواد ، وكانت فى هذه الآونة عربية اللغة والعنصر
ولكنها فارسية الحكم ، ومنذ أحس عرب العراق صوت الاسلام
يدوى فى أرجاء الجزيرة العربية قويا قاهرا ، تحركت عندهم
غريزة مناصرة ومغالبة هذه الدولة الفتية الجديدة ، وكان هؤلاء
لا يعرفون دينا قيما يجمعهم ولم تكن تجمع بينهم سوى وحدة
اللغة ، وأثار الاسلام فيهم أريحية الكرامة وبصرهم بأنفسهم ،
وأشعرهم بشخصيتهم ، وعرفهم أن لهم رسالة فى الحياة أسمى
وأجل من كل ما عرفوه أو سمعوه ، وأمدهم برباط الاخاء العام
فى وحدة اللغة والدين . وكان هؤلاء يعانون فوق ما كانوا يعانونه
من المذاهب والنحل المختلفة اذلال الحكام واستبدادهم ، هذا

(١) كانت الحرب قد قامت بين الفرس والروم قبيل وفاة
الرسول ، وحطم هرقل جيوش الفرس فى موقعة نينوى ودستجرد
وتقدم حتى صار على أبواب المدائن عاصمة ملكهم .

فوق الاضطراب الكبير الذى ساد البلاد فى هذه الفترة اذ ثارت
الفتن بين الأمراء ، وقد أخذ كل أمير يسعى الى قتل الجالس على
العرش ليأخذ مكانه حتى لقد ادعى هذا العرش فى سنوات أربع
تسعة من الأمراء كانوا يقتلون عليه فيقتل بعضهم بعضا جهرة
حيناً وغيلة حيناً .

لماذا اغار المثنى على السواد ..

تتبع المثنى أحوال العجم ، وتنسب أخبار العرب القاطنين
فى أرض السواد ، وعلم من دراساته لأحوال العرب أن العجم
يسمونهم الأذى ، وقد استضعفوهم فشنوا عليهم الغارات
مستغلين فى ذلك ملوك الحيرة الذين يخضعون لسلطانهم ، وعرف
المثنى أن العرب يقاسون من ظلم العجم الكثير ، وأنه لا أمن
ولا سلام لعرب فى وسط العجم ، وكان مما عرفه أيضا ذلك
الاضطراب العنيف الذى يعيش فيه العجم داخل بلادهم فالناس
هناك حاقدون على الولاة ، وفروع البيت المالك فى نزاع مستمر .
اذن فالبلاد التى يقف المثنى على أبوابها بلاد مزعزة الأركان
مهلهلة الجوانب لا ضابط فيها ولا رابط ولا منظم للشئون ..
تعمها الفوضى والاضطراب .. أهلها مختلفون شيعا وأحزابا ..
وأمرؤها نافرون .. وفيها يعيش الناس فى مذلة وهوان .

وقفز الى ذهن المثنى هذا السؤال .. لماذا لا يقتحم أرض
السواد بمن تبعه من بنى شيبان ؟ ! .. ان تحت يديه ثمانية
آلاف مقاتل من خيرة الأبطال ، فلماذا لا يخرج بهم الى أرض
السواد فيمد يده الى العرب المقيمين هناك يرد لهم اعتبارهم

ويصد عنهم ظلم الحكام ويرتفع بنفوسهم الى مراتب الكرامة والرضى ، وينشر بينهم مبادئ الاسلام الخالدة ويأخذ بأيديهم الى حياة أفضل تليق بهم كأفراد في العائلة الانسانية .

•• أولى غارات المثنى

بعد أن أسهم المثنى في القضاء على المرتدين في البحرين تقدم الى القطيف وهجر ، وبلغ مصب دجلة والفرات ، ومن هناك بدأ غاراته المتعددة على احدى مدن الفرس العتيقة وتسمى دهشتاباذ أردشير واستطاع أن يدخل المدينة وأن يخربها بعد أن غنم أموال قاطنيها ، وسماها العرب لكثرة ما أصابها من الخراب الخريبة^(١) ، ثم اتجه المثنى الى مدينة الأبله^(٢) ، وكانت بها قوة فارسية كبيرة فانتصر عليها ووقع في يده منها أسرى كثيرون .. وعطف المثنى بعد ذلك على الحيرة ، ووقعت مناوشات كبيرة

(١) بنيت مكانها مدينة البصرة القديمة في زمن الخليفة عمر ابن الخطاب واهتم المسلمون بهذه المدينة فيما بعد حتى أصبحت من أهم بلادهم وسميت خزانه العرب .
(٢) في موقع البصرة الحالية .

قبيل أن معالم هذه المدينة محيت حين دخلها الزنج في عام ٢٥٦ هجرية فقتلوا رجالها ونهبوها وأحرقوها .

ويقول مؤرخو العرب انها مدينة قديمة على الشط في زاوية الخليج الذي يدخل الى البصرة وهي أقدم من البصرة التي وجدت أيام الخليفة عمر بن الخطاب في الوقت الذي كانت فيه الأبله مدينة عامرة فيها مسالح للفرس .

وقال الدينوري في الأخبار الطوال « لم يكن موضع البصرة يومئذ الا الخريبة وكانت الابله مرقى سفن البحر من عمان والبحرين وفارس والهند والصين » .

بينه وبين سكانها ، وكانت شجاعته وقوته وبطولة رجاله من العوامل الكبيرة التي أثارت روح النفور والتمرد في القبائل العربية ضد الحكم الفارسي حتى بلغ الأمر ببعض هذه القبائل أن حملت السلاح في وجه حكامها .

الحيرة (١) ♦♦♦

تقع الحيرة على ثلاثة أميال من مكان الكوفة في موضع يقال له النجف على ضفة الفرات الغربية في حدود البادية بينها وبين العراق ... اتسعت مبانيها ، وأقيمت فيها المنازل والقصور والحدائق حتى ان عاصم بن عمرو قال في وصفها ..

صبحنا الحيرة الروحاء خيلا

ورجلا فوق أثباج الركاب

حضرنا في نواحيها قصورا

مشرفة كأضراس الكلاب

واشتهرت الحيرة بصحة هوائها حتى قيل « يوم ليلة في

الحيرة خير من دواء سنة » .. وكان بجوارها قصران كبيران هما

الخورنق والسدير .

(١) قيل سميت الحيرة بمعنى الضلال لأن من بلغ موضعها

ضل دليله وتحير .

وقيل انها سميت كذلك لأن مالكا حين نزلها جعلها حيرا اى

بستانا .

وقيل سميت الحيرة من الحوار اى البياض لبياض أبنيتها .

وقيل ان لفظها سرياني معناه الحصن أو المعتقل حوله خندق .

ولما كانت الحيرة على طرف العراق في الغرب ، وتليها البادية فقد رغب فيها البدو ، كما جاءتها جماعات من مدن العراق والجزيرة ، وقامت مملكة الحيرة حين كثر سكانها وزاد اتساعها وكان من أشهر ملوكها (١) عمرو بن عدى (٢) ، وامرؤ القيس ابن عمرو ، وعمرو بن امرئ القيس ، والمنذر بن النعمان ، والمنذر بن المنذر والنعمان بن الأسود ، والنعمان بن المنذر ابن ماء السماء ، والمنذر بن النعمان الغرور (٣) .

ولقد ولد الرسول الكريم في السنة التاسعة من حكم عمر ابن هند (٤) .

وامتد ملك النعمان بن المنذر أبو قابوس حتى بلغ دجلة

(١) بلغ ملوك الحيرة ٢٢ ملكا تولوا الملك مدة ٣٦٤ سنة وكان أطولهم ملكا عمرو بن امرئ القيس (٤٩ سنة) ، وأقلهم المنذر ابن المنذر بن ماء السماء وعلقمة أبو يعفر (٣ سنوات) .

(٢) يقول الطبري ان أول ملك للحيرة من العرب هو مالك ابن فهيم من الأزدي وخلفه أخوه عمرو بن فهيم في رواية وجذيمة الأبرص في رواية أخرى ، ويقول عنه الطبري انه « من أفضل ملوك العرب رأيا وأبعدهم مغارا وأشدهم نكاية وأظهرهم حزما وأول من استجمع له الملك بأرض العراق ، وضم اليه العرب وغزا بالجيوش » ... (الطبري ج ٢ ص ٣٠) وأيده في ذلك اليعقوبي .

(٣) هو آخر ملوك الحيرة قتل في البحرين يوم جواث ، ويقول ابن الكلبي ان المنذر حكم ثمانية أشهر بالحيرة قبل فتح خالد لها ، ويخالف جواد على ابن الكلبي ، ويقول ان المنذر لم يحكم الحيرة وإنما حكم البحرين في أثناء الردة وحاربه المسلمون وسقط أسيرا في أيديهم .

(٤) تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٤ ص ١٠٤ .
(٤) بلغ عمر ملكه ١٦ سنة .

حيث بنى مدينة النعمانية على مقربة من المدائن عاصمة كسرى ، فلم يرض كسرى أبرويز عمًا بلغ النعمان من سلطان وما يرفل فيه من نعمة (١) فحبسه وقتله ثم قضى على سلطان اللخمين ، وأقام مقامه أياس بن قبيصة وأقام معه مرزبانًا فارسيا يدعى بهرجان .

•• ابو بكر وفكرة الغزو ••

بعد أن انتهى أبو بكر من حروب الردة عاوده التفكير في دفع المسلمين الى خارج شبه الجزيرة حتى ينصرفوا عن ثاراتهم الأولى وثورتهم بسلطان المدينة ، وتنصرف أذهانهم عن أى تصرف قد يسىء الى موقف الاسلام والمسلمين وحتى يجعل لهم من الفخار ما ينسيهم ضعفهم على يثرب وأهلها ويمهد الطريق لانتشار كلمة الله فى خارج الجزيرة .

وكان أمام أبى بكر وجهتان ... اما أن يوجه جيوشه الى بلاد الفرس ، واما أن يوجهها الى بلاد الروم وكلاهما يتأخم الجزيرة العربية من شمالها .

ولكن الى أين يوجه أبو بكر ضربته ؟ .

أالى بلاد الروم ؟ ... ان غزو الروم أمر فيه خطورة فان لم يحالف المسلمين النصر تعرضت الجزيرة العربية لخطر أشد من هذا

(١) قيل أن النعمان على قبح صورته كان مترفا ولوعا بمتع الحياة وتزوج امرأة أبيه المتجردة وكانت ذات جمال بارع فأحبت المنخل اليشكرى فقتله النعمان وأنشأ لها الحدائق وجلب لها أبهج الزهور طمعا فى أن تبادلها الحب .

الخطر الذى تعرضت له حين قامت الردة فيها وقد تؤدى هزيمة المسلمين الى وقوع بلادهم فى قبضة الروم فيرتد المسلمون عن دينهم .

ألى بلاد الفرس ؟ ... ان التفكير فى توجيه الضربة الى بلاد الفرس لم يمر بخاطر أبى بكر لأنها تتاخم المناطق العربية التى فشت فيها الردة والتى يتعذر على أبى بكر أن يعتمد على أهلها أو أن يأمنهم فى قتال ضد دولة قوية ذات جيوش جرارة وموارد كثيرة . ولم تتضح الصورة جيدا أمام أبى بكر ولهذا قرر أن يتجه بجهوده الى داخل الجزيرة يوطد الأمن بها ، ويؤكد وحدة أهلها ، واتجه فعلا هذا الاتجاه ، حتى أنه أخذ عليه كل وقته فى العام الأول لخلافته ، فلم يقيم بالحج بالناس وإنما أناب عنه عتاب ابن أسيد عامله على مكة واستمر هو — بمساعدة عمر بن الخطاب الذى ولى القضاء ، وأبى عبيدة بن الجراح الذى ولى شئون المال ، وعثمان بن عفان ، وزيد بن ثابت اللذين توليا كتابة الأخبار للخليفة — فى وضع النظم الادارية للدولة الجديدة .

أنباء المشى . . .

وبينما أبو بكر يعطى اهتمامه لشئون الدولة ، اذ وصلتته أنباء من العراق أن قائدا عربيا من البحرين من بكر بن وائل يسمى المشى بن حارثة قد سار بقواته شمالا ووضع يده على القطيف وهجر وبلغ مصب دجلة والفرات وقضى على الفرس وعمالهم ، وتابع سيره الى الشمال ، ونزل فى قبائل العرب التى تقيم بدلتا النهرين وتحدث اليهم وتعاهد معهم .

وعاد أبو بكر على أثر هذه الأنباء يفكر من جديد في دفع المسلمين الى عمل خارج شبه الجزيرة وقد رأى أن المثني قد طار صيته في الآفاق وأن القبائل تلهج باسمه وتردد أبناء وقائعه وأخبار انتصاراته فسأل من حوله عن المثني قائلاً « من هذا الذي تأتينا أخبار وقائعه قبل معرفة نسبه ؟ » .

فانبرى له قيس بن عاصم بن سنان وأجابه قائلاً « هذا رجل غير شامل الذكر ولا مجهول النسب ولا ذليل العماد ... هذا المثني ابن حارثة الشيباني » .

من خلال العوامل التالية رأى أبو بكر أن يوجه جيوش المسلمين الى أرض السواد عندما تحين له فرصة مواتية ...

- ١ — في استطاعة المثني أن يتوغل في العراق وأن يفتح للمسلمين أبوابه ما دامت أبواب الشام مستعصية .
- ٢ — الرغبة في صرف المسلمين عن ثاراتهم وتوجيههم الى ما يعود بالخير على الاسلام والمسلمين .
- ٣ — القبائل العربية في العراق من بنى لخم وتغلب وأباد والنمر وبنى شيبان تهوى نفوسهم الى منابثهم في شبه الجزيرة .
- ٤ — تأمين شبه الجزيرة من دسائس الفرس وعدوانهم .
- ٥ — دلتنا النهرين مليئة بألوان الزرع والفاكهة والطيور والحيوان ودهاقين الفرس يستولون على غلتها في حين أن العرب المقيمين هناك لا ينالون الا ما يوجد به هؤلاء وهو في الغالب قليل .

٦ - الانتصار على الفرس خطوة تتلوها خطوات واسعة
تعود بالخير على الاسلام والمسلمين .

لقاء المثنى وأبى بكر ...

عندما اشتدت غارات المثنى على أرض السواد لم يستطع
العجم أن يسكتوا ازاءها ، ولهذا بدءوا ينتهبون ويقدرّون هذا
الخطر الكامن وراء هذه الغارات المتتالية للمثنى ، فأعدوا الجيوش
ورتبوا القوى وتأهبوا لملاقاته وأوعزوا الى القبائل الكلدانية
السائكة عند مصاب الفرات لتتعرض له وتسد جموعه ، ولكن
هذه القبائل لم تستجب لهذه الدعوى لأنها قبائل عربية أصلاً^(١)
وأبت عليها عروبتها أن تحمل سلاحها في وجه اخوة لهم من
العرب .

وبعد تعدد غارات المثنى رأى بعمق تفكيره وسلامة ادراكه
أن هذه الغارات يجب أن تسهم فيها الحكومة المركزية في المدينة
وذلك في ضوء ...

١ - ليس من المستطاع لقواته التي تعمل تحت امرته أن
تستولى وحدها على مملكة عظيمة مترامية الأطراف
كمملكة الفرس التي تدين لها جميع بلاد العراق حتى
شواطئ بحر قزوين ، وخاصة أن قواته في حاجة
دائمة الى الامداد بالرجال لتعويض الخسائر .

(١) ذهب العلامة الانجليزي سايس الى أن قبيلة كلدة هي
قبيلة من الساميين نزلت عند مصب النهرين وأنها طليعة قبائل
متعددة نزلت من شمال بلاد العرب ، ويقول الأب أنستاس ماري
أن كلدة هو شيخ عربي أسس دولة كلدان .

٢ — حربته ضد الدولة ليس لها صورة رسمية ، وانما هي
جهد فردي يقوم به مع قومه الذين عاونوه وأيدوه .
٣ — خوفه من أن تهزم قواته فتقع مسؤولية الهزيمة على
عاتقه وحده .

٤ — في حالة انتصار الفرس عليه قد يشجعهم هذا الانتصار
على تتبعه واسترداد نفوذهم في البحرين وما جاورها .
ولهذا أسرع المثنى الى المدينة حيث التقى بالخليفة أبي بكر
الذي كان قد عرف الكثير عنه قبل أن يلقاه (١) .

ونقل المثنى الى أبي بكر صورة واضحة المعالم عن أرض
السواد .. أخبره بتفاصيل غاراته ووقائعه وقدم له وصفا للحالة
الداخلية لبلاد الفرس وجعله يقف على أمورها واضطراب حبل
دولتها ، وانهيأ كل قوة أو منعة فيها .
وما زال المثنى يهون على الخليفة أمر العراق ويغريه ببلاد
فارس التي يطلقون عليها اسم جنة الأرض لكثرة غلاتها ووفرة
خيراتها .

(١) ذكر بعض المؤرخين أن المثنى لم يذهب الى المدينة ولم
يقابل أبا بكر ، وانما أمعن في السير بجيشه في دلتا الفرات فلقية
هرمز فدارت بينهما معارك ووقائع وصلت أنباؤها الى أبي بكر
فسأل عنه ، وعرف أخباره فأصدر أمره الى خالد ليخفف اليه
ويعيثه ، ويؤكد هؤلاء وجهة نظرهم بقولهم ان المثنى كان منتصرا
ولم يكن في حاجة الى مدد ، وان انتصاراته المتتالية شجعت
أبا بكر على التفكير في غزو العراق فأمر خالد بالذهاب الى هناك
ليعزز المثنى ويفتح الحيرة .
ووقف بعض المؤرخين من هذا الخلاف في الرواية موقفا سلبيا ،
ولم يرجحوا رواية على أخرى كالطبرى وابن الأثير .

هذا فوق أن المثنى طلب من الخليفة أن يقوم بتأمين العرب
من أهلها وحمايتهم من شرور حكامها ..
وقال المثنى للخليفة « أقرني على من قبلى من قومي أقاتل من
يلينى من أهل فارس وأكفك ناحيتى . »

مشاورات أبى بكر ...

جمع أبو بكر أصحابه الذين اعتاد أن يعرض عليهم أهم
الأمور وأخطرها وخاصة تلك الأمور التى ترتبط بتوسع أو فتح ،
وعرض عليهم ما جاء من أجله المثنى ، وتداول القوم المشورة ،
واستقر رأى على أن يؤخذ رأى خالد بن الوليد بصفته رجلا
عسكريا ذاع صيته فى جميع الأرجاء خيرا بشئون الحرب
والقتال ، وكان خالد فى هذه الأثناء قد فرغ من غزوة عقرباء ،
وكان مقيما باليمامة ، فاستدعاه أبو بكر فجاء ، وعرض عليه الأمر
فدرسه ثم وافق عليه ، وأيد مطالب المثنى تأييدا بعيدا مطلقا وأشار
بضرورة الاسهام الايجابى فى عمليات العراق التى يقوم بها المثنى
ومعاونتته معاونة فعالة حتى يستطيع أن يفتح أبواب العراق أمام
الجيوش الاسلامية .

وأقر أبو بكر رأى خالد ثم أقره الصحابة وأصدر أبو بكر
أوامره بتأميم (١) المثنى واستمراره فى عملياته الحربية وكتب له
عهدا بذلك .

(١) أى جعله أسيرا على الجند .

جيش خالد ...

عاد المثنى الى بلاد الفرس ، وتولى قيادة جيشه وأخذ يعد العدة للقيام بالدور الخطير الذى ألقى على عاتقه ، وأحس بالمسئولية الضخمة التى أصبحت فى عنقه .

وفى هذه الأثناء عاود أبو بكر التفكير فى أمر العراق ، ورأى أن يمد المثنى بقوات وامدادات تساعدته وتسانده وتشد من أزره ليتحقق فى بلاد الفرس نصر سريع عاجل ، فأصدر أوامره الى خالد بن الوليد (١) بأن يجمع بقية جنده فى اليمامة ، وأن يسير بهم الى العراق ، على أن تكون له القيادة العليا بطبيعة الحال ، وفى ذات الوقت أمر أبو بكر عياض بن غنم بالسير الى دومة الجندل ، فاذا ما أخضع أهلها المتمردين تحرك شرقا الى الحيرة لمعاونة خالد فى مهمته .

وأوصى أبو بكر خالدًا وعياضًا ألا يضرًا بفلاحى العراق وأهل السواد حرصًا منه — رضى الله عنه — على منابع الثروة ، فالفلاحة هى مصدر حياة الناس ، وتقدمها أساس العمران فى الممالك ، ومن زاوية أخرى فإن العرب فى العراق كانوا يعملون فلاحين فى أرضه وينالهم — كما سبق القول — القليل من خيره ، وأما وافر الخير فيذهب الى الدهاقين الفرس الذين كانوا يسومون العرب الخسف والظلم ، ولهذا أمر أبو بكر قواده بالألا ينالوا هؤلاء العرب الفلاحين بسوء ، والألا يقتلوا أحدا منهم ، ولا يأخذوا منهم

(١) ذكرت بعض المراجع أن أبا بكر أمر خالدًا بالمسير الى العراق فى السنة الثانية عشرة هجرية .

أسرى ، ولا يسيئوا اليهم فهم عرب مثلهم ، يشعرون بالظلم تحت نير فارس فيجب أن يشعروا بزوال هذا الظلم حين يكونوا تحت سيطرة العرب ، وكذلك أمر أبو بكر قواده باستبعاد كل من ارتد فلا يشترك في حرب ولا يؤمن جانبه وذلك لضعف ثقته بأهل الردة بعد ما ظهر منهم من حرب المسلمين ، ولعله خشى أن تكون في قلوب بعضهم ضغن على المسلمين فيثون روح الفتنة ويفسدون عليهم أمر الفتح (١) .

وأوصى أبو بكر خالداً بالآلا يجبر أحداً على السير معه بل يأذن لمن شاء من رجاله الرجوع والعودة .

وعندما تحرك خالد كان تحت امرته عشرة آلاف مقاتل واستقبله المشي ومعه ثمانية آلاف وأمدته الخليفة بالقعقاع ابن عمرو التميمي .

وعندما استقر خالد في أرض العراق كان تحت امرته رجال أبطال ميامين باعوا أنفسهم في سبيل الاسلام وخلصت نيتهم للدين الذي هياً الله لأهله أسباب النصر ... ومن هؤلاء الرجال :

المشي بن حارثة .

(١) سمح عمر وقت خلافته لكل المسلمين بما فيهم من ارتد بالاشتراك في القتال وأبلى زعماء الردة مثل طلحة الأسدي وعمرو ابن معدي يكره والأشعث بن قيس البلاء الحسن في فتوح الشام والعراق وأستشهد منهم كثيرون في الفتوح .

مدعور بن عدى العجلى : كان قد كتب لأبى بكر يستأذنه
فى قتال الفرس ، فأمره أن ينضم
الى خالد .

سويد بن قطبه الدهلى : وكان ينتظر وقومه من بكر بن وائل
فى البصرة وصول خالد ليكون
معه فى القتال .

عاصم بن عمرو
عدى بن حاتم الطائى
معقل بن مقرن المزنى

القعقاع بن عمرو التميمى : وكان خالد قد طلب من أبى بكر المدد
فأمده بالقعقاع ، فسئل « أتمده
برجل واحد » فقال « لا يهزم جيش
فيه مثل هذا » .

المثنى الجندى ...

عندما وصل خالد الى بلاد الفرس كان المثنى على رأس قواته
فى معسكر خفان — وهو موضع قريب من الكوفة وفوق
القادسية — ونزل خالد بقواته فى محل يدعى النجاج ، ثم كتب
الى المثنى يطلب منه السير اليه بقواته .

وكجندى يعرف أن الطاعة للقائد واجبة وأن تنفيذ الأوامر هو أول صفات العسكرية الحقة ، تحرك المثني — عندما تلقى أمر خالد — بكل جنده وضم قواته الى قوات خالد ، وأصبح منذ هذه اللحظة جنديا بسيطا كسائر الجند يعمل تحت امره خالد ، بعد أن كان قائدا لجنده ، ولم يضايقه العمل تحت امره خالد ، ولم يعتره الخور بل ضاعف الهمة وواصل الجهاد ووضع نفسه وسلاحه تحت امره خالد ينفذ أوامره في صدق وأمانة وإخلاص .

كأظمة (١) . . .

وكان أول اشتراك للمثني في الحرب تحت قيادة خالد في المعركة التي دارت بين جيوش المسلمين وجيوش الفرس بقيادة هرمز ، وكان هرمز هذا أميرا ممن تم شرفهم (٢) كما كان من أسوأ أمراء الفرس معاملة للعرب حتى بلغ من حقدهم عليه أن جعلوه مضرب المثل في الكفر والخبث وكانوا يقولون « أخبث من هرمز » ، « وأكفر من هرمز » ، وكان هرمز يعد نفسه حاميا البلاد التي تعد مفتاح فارس ، وكان ينازل العرب في كل مكان برا وبحرا .

أعاد خالد تنظيم قواته في أول لقاء ، وقسم الجيش الى ثلاث

(١) تسمى أيضا ذات السلاسل لأن هرمز ورجاله كانوا مقيدون ومقرونين بالسلاسل حتى لا يفروا .

(٢) كان أهل فارس يجعلون قلانسهم على قدر أحسابهم في عشائرتهم ، فمن تم شرفه فقيمه قلنسوته مائة ألف وتلك كانت قيمة قلنسوة هرمز .

فرق ، ولم يحمل الفرق الثلاث على طريق واحد بل جعل المشنى على رأس فرقة هى مقدمة الجيش ، وجعل عدى بن حاتم وعاصم ابن عمرو على رأس فرقة أخرى تلى فرقة المشنى ، ثم خرج هو بنفسه على رأس الفرقة الثالثة ، وحدد مكان اللقاء والتجمع للفرق الثلاث فى الحفير ، وتقدمت الفرق الثلاث الى أغراضها بفاصل يوم واحد .

ودعا خالد هرمز الى واحدة من ثلاث .. الاسلام أو الجزية أو القتال « أما بعد فأسلم تسلم أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة وأقر بالجزية والا فلا تلومن الا نفسك فقد جئتك بقوم يجبون الموت كما تحبون الحياة » .

وعلم خالد أن هرمز قد سبق القوات الاسلامية الى الحفير واحتلها فغير وجهة قواته الى كاظمة ، فلما علم بذلك هرمز أسرع اليها ونزل على الماء بها ، فاضطر خالد أن ينزل بقواته على غير ماء ثم قال لجنده « اعمرى ليصيرن الماء لأصبر الفريقين فحطموا أئقالكم ثم جالدوهم على الماء » .

وانتهت المعركة بانتصار المسلمين وقتل هرمز وفر جيشه فأمر خالد المشنى بمطاردة الفارين ، وخالد كقائد عسكرى يدرك قيمة المطاردة بالنسبة للجيش المنتصر ، وأيضا بالنسبة للجيش الفار ، ويعلم أن وقعها على الجيش الفار أليم ، اذ يزلزل كيانه ويحطم معنوياته ، ويفقده الثقة فى نفسه وفى قاداته ، ومن أجل هذا رأى خالد أن يقوم بالمطاردة رجل قوى عليهم بمنون الحرب وأصولها ليستطيع أن يحقق الغرض من المطاردة ولم يجد فى قاداته من يرتفع

الى مستوى القوة والحكمة والعلم بشئون الحرب سوى المثنى
ابن حارثة ، فأسند اليه هذا الأمر وهو مطمئن الى تنفيذة بالصورة
التي يريدتها وبالنتيجة التي يهدف اليها .

حصن المرأة . . .

أسرع المثنى يلاحق المنهزمين الفارين في اتجاه المدائن ومر
أثناء المطاردة بحصن تقيم فيه أميرة فارسية أطلق عليه مؤرخو
العرب اسم حصن المرأة .

رأى المثنى أن انشغاله بهذا الحصن قد يعطله عن هدفه
الأساسى وغرضه الرئيسى ، وهو رجل حرب يعلم أن من أهم
مبادئها المحافظة على الغرض ، ولهذا ترك مهمة مواجهة الحصن لأخيه
المعنى وأمره بمحاصرة الحصن ، ثم تقدم هو فى طريقة ، فقبول
يحصن آخر كان يقيم به زوج الأميرة ، وكان الحصن يعترض
طريقه فهاجمه ، وفضه على من فيه وقتلهم وأخذ أموالهم ، ثم
استمر بعد ذلك فى مطاردته للجيش الفار .

ولما علمت الأميرة بما أصاب زوجها صالحت المعنى ، ثم أعلنت
اسلامها وعرضت عليه أن يتزوجها فتزوجها (١) .

المدار . . .

استطاع الملك أردشير أن يعد جيشا آخر بعد هزيمة هرمز
ولى قيادته قارن بن قريانس ، وهو أمير تم تشريفه ، وتقدم الجيش
الجديد الى مكان بين البصرة وواسط يسمى المدار ، وهناك التقى

(١) الطبرى .

بفلول الجيش المنهزم فجمعها ، وأعاد تنظيمها وضمها الى قواته ، وقال للأفرادها — بعد أن اتخذ له معسكرا في هذا المكان — « ان افترقتم لم تجتمعوا بعدها أبدا » ، وكانت القوات الفارة التي ضمت الى قوات قارن بقيادة قباذ وأنوشجان ابني الملك أردشير . وبينما المشنى يلاحق القوات الفارة المنهزمة في كاظمة ، وصلته أنباء الجيش الجديد المتقدم من المدائن ، والذي اتخذ مواقعه في منطقة المذار ، فقدر موقفه ، ووجد أن قوات عدوه تفوق قواته ، ولكنه في ذات الوقت أدرك أن عليه دورا كبيرا وهو أن يواجه هذه القوات ويناوشها وأن يشغلها حتى تصل اليه بقية القوات الاسلامية بقيادة خالد ، ولهذا نزل بجنده في مكان قريب من المذار في مواجهة أعدائه ثم كتب الى خالد الذي أسرع اليه للملاقة قوات الفرس ، ووصل خالد في الوقت المناسب وشد بقواته على الفرس ، وتحول المسلمون الى أسود كاسرة لا تهاب الموت وانما تلقاه باسمه ، ودار قتال عنيف قتل خلاله قارن وقباذ وأنوشجان وأطاحت سيوف المسلمين براءوس الفرس في كل جانب ، وولت جيوش الفرس الأدبار وقد بلغ عدد قتلاهم ثلاثين ألفا .

معارك أخرى . . .

واستمر المشنى في جهاده الكبير العظيم تحت قيادة خالد ابن الوليد ، فانتقل معه من موقعة الى أخرى ، ومن قتال الى قتال ، لم تضعف روحه ، ولم تهين عزيمته ، وانما ظل متمسكا بمبادئه قويا في ايمانه عظيما في قتاله حتى توغل الجيش الاسلامي في بلاد

الفرس ... في باقيا وباروسما والولجة واليس وأمغيشيا والحيرة
والانبار وعين التمر وخنافس والحصيد والثني والبشر والرضاب
والفراض ...

القيادة للمثنى ...

لقد أدى المثنى دورا كبيرا خطيرا في هذه المعارك كلها وكان
له فضل في النتائج التي انتهت اليها حتى ان شاعرا وصف موقفه
في موقعة الانبار فقال ...

وللمثنى بالعال (١) معركة

شاهدها من قبيله بشر

كثيية أفرعت بوقعتها

كسرى وكاد الايوان ينفطر

لقد قدر خالد له جهده ، وقدره أيضا أبو بكر الصديق حتى
أنه حينما أمر خالد بن الوليد بالتحرك الى الشام لمساعدة الجيوش
الاسلامية التي كانت تواجه جيش الروم في اليرموك أمر بأن يتولى
المثنى قيادة الجيش الاسلامى في العراق ، وكتب الى خالد « دع
العراق وأخلف أهله فيه الذين قدمت عليهم وهم فيه » ، وأبو بكر
بذلك يعنى أن يترك قيادة الجيش الاسلامى الى المثنى بن حارثة
الشيبانى .

وجاء في كتاب أبى بكر « امض مخففا في أهل قوة من أصحابنا
الذين قدموا معك العراق من اليمامة وصحبوك من الطريق ،

(١) يقصد بالعال : الانبار .

وقدموا عليك من الحجاز حتى تأتي الشام فتلقى أبا عبيدة ابن الجراح ومن معه من المسلمين » .

وفي رواية أن أبا بكر أمر خالدًا بالخروج في نصف الناس وأن يخلف على النصف الآخر المثنى ، وقال أبو بكر لخالد « لا تأخذ مجدا الا خلفت لهم مجدا ، فاذا فتح الله عليك فاردهم الى العراق وأنت معهم » وأحضر خالد أصحاب رسول الله واستأثر بهم على المثنى ، ثم قسم الجند نصفين ، فقال المثنى « والله لا أقيم الا على انفاذ أمر أبي بكر كله في استصحاب نصف الصحابة ، وإبقاء النصف أو بعض النصف ، فوالله ما أرجو النصر الا بهم ، فكيف تعرينى منهم ؟ » ... وتشدد المثنى بأصحاب رسول الله له معنى ومعزى ، فهو يعرف الصحابة جيدا ، ويعرف عنهم أنهم صابرون في الحرب محبوبون للموت في سبيل الله أقوياء في الجلال ، وفهم خالد ما يقصد اليه المثنى فأرضاه وأعاضه من الصحابة أبطالا مجريين ، وقبل المثنى الوضع الذي أراده خالد ، وخرج في كتيبة من الجند يشيع خالدًا وأصحابه الى تخوم الصحراء حتى قراقر ، ووقف المثنى يودع خالدًا واستمع المسلمون جميعا الى قول خالد وهو يسلم القيادة الى المثنى « ارجع رحمك الله الى سلطانك غير مقصر ولا وان » .

ولا شك في أن هذه الكلمات تحمل كل معاني الرضا والطمأنينة والتشجيع والاعجاب والتقدير .

وهذا الوداع الذي شهدته منطقة قراقر يدل دلالة واضحة

على ما بين القائدين العربيين الكبيرين من التألف والتواد والثقة
والاحترام المتبادل .
وعاد المثني قائدا للجيش العربي الاسلامى فى أرض العراق.
وبدأت منذ هذه اللحظات أروع صفحات المجد والبطولة
للقائد العربى الهمام .

الباب الرابع

المثنى في العراق
معاركه ... مواقعه ... غزواته

ما أن رأينا أميرا بالعراق مضى
مثل المثنى الذي من آل شيبانا
أن المثنى الأمير القرم لا كذب
في الحرب أشجع من ليث بخفانا

موقعة بابل

المثنى القائد ...

قلنا ان المثنى كان أول من تطلع الى أرض السواد .
وانه بدأ فعلا غاراته وهجماته في المنطقة ، فلما أحس بالمسئولية
الضخمة اتجه الى أبي بكر وعرض عليه أمر فتح العراق ...
واستشار أبو بكر أصحابه فاتفقوا على عرض الأمر على خالد ابن
الوليد للوقوف على رأيه بصفته القائد الأول للجيش الاسلامية .
فلما جاء خالد ووضع الأمر موضع التشريح والدراسة والبحث
وافق عليه وأيد مطالب المثنى ... ثم استقر الرأي على أن يكون
المثنى قائدا للجيش العربى هناك .. ولما اتضحت أهمية العمليات
في هذه المنطقة قرر أبو بكر أن يبعث الى كسرى العراق بسيف
الله المسلول ليهد قواه وليزعزع عرشه وليعلى كلمة الله فوق
أرض العراق ..

وذهب خالد وخاض المعارك وانتصر فيها كلها وحارب معه
المثنى بكل ما كان يتمتع به من روح عربية واطلاص وثقة وأمل
ورغبة .

ثم رأى أبو بكر أن جيوشه في الشام في حاجة الى عبقرية
خالد وبطولته فقال قولته المشهورة « والله لأنسين الروم وساوس

الشیطان بخالد بن الولید .. وأمر بتحرکه من العراق الى الشام.
وترک خالد العراق ، وترک من خلفه المثنی بن حارثة علی
رأس الجيش ..

تقدير الموقف ...

بعد أن أقيمت مقاليد الأمور الى المثنی ، أقام فی الحيرة وجعلها
مركزا لقيادة العمليات ودارا لامارته ومقرا لحركاته فأقام بها يعد
أمر المعارك القادمة ويهيئ جنده لها ويجمع أصحابه ورجاله
ويوحد صفوفه وأخذ كأى قائد عسكري يبحث الموقف ،
ويدرسه ويقدره ووجد أن عليه واجبين ...

الأول : الدفاع عن البلاد التي فتحها المسلمون بما بقي
لديه من قوات بعد ارتحال خالد ومواجهة الفرس
الذين سيبدأون فی التحرش به بمجرد علمهم أن
خالدا قد سافر .

الثاني : اتمام الرسالة التي بدأها وهي الدعوة الى الاسلام
ونشره في هذه البقاع ، وخاصة أنه هو الذي دفع
أبا بكر الى غزو العراق وهو الذي تقدم خالدا
والمسلمين جميعا الى فتحه بالسير الى دلتا النهرين .
وتراءى له الموقف معقدا الى حد كبير بالغاية الدقيقة من
حيث انه أصبح يواجه عدوين ...

الأول : البدو المقيمين في جزيرة العراق الذين بطش بهم
خالد فأصبحوا خصوما للمسلمين .

الثانى : الفرس الذين تنبهوا الى أن دولتهم مؤذنة بالزوال
إذا ظل لهؤلاء العرب الغزاة فى العراق سلطان .
ولا يفوتنا أن نذكر أن خالد بن الوليد كان قد أحس بهذا
الموقف قبل مغادرته أرض العراق الى الشام ، ولهذا أمر بأن
ترسل النساء والصبيان والضعفاء من الرجال الى المدينة .

جيش الأعسداء . . .

حدث فى أثناء التغيير فى القيادة العربية أن تعرضت بلاد
الفرس لاضطرابات متتالية ، وتولى أمرها ملوك كثيرون ، وكان
الفرس يقتلون الملوك الواحد بعد الآخر ، ثم اتفق رأيهم على أن
يتولى الأمر شهر زان بن أردشير بن سابور (١) ، فما ان تولى
الأمر حتى كان اجلاء المسلمين عن العراق أول ما استقر عليه
عزمه ، ولقد دفعه الى هذا الأمر ظنه أن تغيب خالد عن المعركة
سيكون ذا أثر فعال فيفت فى عضد العرب ويوهن قواهم ويضعف
عزيمتهم ، ولقد أراد شهر زان أن يستغل الموقف فأعد جيشا من
عشرة آلاف مقاتل لمحاربة المثنى ، وعين عليه هرمز جاذويه وأمره
بأن يقاتل العرب الى أن يخلص البلاد منهم نهائيا .
وبدأ جيش الفرس فى التحرك متجها الى الحيرة .

التحرك العربى . . .

وعلم المثنى بتحرك قوات الفرس فرأى أن يخرج هو الآخر
بجيشه لملاقاتها .

(١) اختلفت الروايات فى اسم كسرى فقييل شهريازان
وشهريازار وشهريراز وشهريران .

وآعاد تنظيم قواته قبل التحرك فجعل أخويه المعنى ومسعود على يمينته وميسرته ، وتولى هو مكان القيادة في القلب .
وعبر الجيش العربي الفرات ووصل بقواته الى بقعة عليها دوارس ناشزة تمثل معالم بابل (١) ، وتبعد عن موطن كسرى وعرينه ٥٠ ميلا ، واحتل هناك مكانا مرتفعا .

خطاب الفرس ورد المثني ...

كان واضحا منذ اللحظة الأولى أن جيش الفرس يفوق جيش المثني في عدده وفي عدته ، الا أنه كان من الواضح أن جيش المثني يفوق جيش الفرس في ايمانه ومعنوياته ورغبته الكبيرة في احدي الحسينيين : النصر أو الاستشهاد .

ووصلت الى المثني رسالة من شهرزان يقول فيها « انى قد بعثت اليك جندا من أهل فارس ، وانما هم رعاة الدجاج والخنازير ولست أقاتلك الا بهم » .

ويبدو في هذا الكتاب منتهى الصلف والمكابرة والغرور ، كما دل الكتاب على عدم خبرة كاتبه بفنون الحرب وأساليب القتال

(١) يقصد بمعالم بابل الاثار التي شيدها العرب قديما ، وأبدعوا في صنعها ، حتى ان هيرودوت بالغ في وصفها وقال انه لا يوجد في عصرها مدينة تقارن بها ، وقال ان في كل ناحية من ناحيتي المدينة ما يستحق مزيد الإعجاب ، ففي أحداها بلاط الملك ، وفي الثانية هيكل جسيم للمعبود بعل ، ويحيط بالمدينة سوران ، أحدهما ضمن الآخر ... وقد عظمت بابل حين اقيمت بها المملكة وأهلواها ، وفيها سن حمورابى الملك البابلى العربى العظيم شرأعه ووضع قانونه المشهور ... وقد سيطر الفرس عليها وخرّبوا ربوعها .

فماذا يصنع رعاة الدجاج والخنازير في ميدان الحرب والقتال ؟ ،
وكيف يلتقي هؤلاء بأسد الحرب أبطال النزال والطنن والقتال ؟ ،
ان رجال شهرزان عابوا عليه كتابه وأخذوا عليه قوله وقالوا له
« جرأت علينا عدونا بالذى كتبت به اليهم ، فاذا كاتبت أحدا
فاستشر » .

وكان من الواضح أن شهرزان كاذب فيما ادعاه في كتابه
فالمثنى لم يفته ما كان ينطوى عليه الكتاب من التلفيق والكذب
والباطل ، لأنه كان يعلم تماما أن جيش الفرس يضم الأساورة
والمرازية والبهلوانية (١) .

ورد المثنى على رسالة شهرزان برسالة قال فيها « من المثنى
الى شهرزان .. انما أنت أحد رجلين اما باغ فذلك شر لك وخير
لنا واما كاذب فأعظم الكاذبين عقوبة وفضيحة عند الله وفي
الناس الملوك ... وأما الذى يدلنا عليه الرأى فانكم انما اضطررتم
اليه ، فالحمد لله الذى رد كيدكم الى رعاة الدجاج والخنازير » .
وعندما تلقى الفرس هذا الكتاب البليغ اهتزت قلوبهم خوفا
وجزعوا ، واستولى عليهم اليأس ، وأسقط في يد الملك الذى لم
يكن يتوقع أن تكون في المسلمين هذه القوة بعد انصراف خالد
عنهم الى الشام .

(١) المرازية ... جمع مرزبان وهو والى الثغر .
ومرز ... بمعنى الثغر ، وبان بمعنى الحافظ أو المقيم .
البهلوانية ... جمع بهلوان وهو البطل .

الفيل ...

أقبل هرمز بجيشه يتقدمه فيل ضخم يضرب بخرطومه يمنة ويسرة ، يفرق صفوف المسلمين ويخل بنظامها ، ويوقع الرعب في المقاتلين ، وتجفل منه خيل العرب .

وبدأ القتال ... ودار عنيفا ... واستمر في عنفه ...

وأدرك المثنى أنه يجب القضاء على هذا الفيل وأن انتصار جيشه رهن بالقضاء عليه .. فدعا قومه من يخرج منهم معه لقتله .. واستجابت له نخبة من الأبطال الذين باعوا حياتهم لشرف أمتهم ومجد دينهم ، وتقدم المثنى ومعه أصحابه الميامين ، وظل يهاجم الفيل حتى استطاع أن يصيب منه مقتلا فهوى بجسمه الى الأرض صريعا ، وكان قتله ايذانا بالهزيمة ، فما أن شاهدت قوات المسلمين الفيل وقد انهار وصرع ، حتى التأمت صفوفهم واشتد عزمهم وراح عنهم خوفهم وقوى اصرارهم وارتفعت روحهم فأخذوا يهاجمون الفرس هجوما عنيفا لا قبل لهم به حتى هزمهم شر هزيمة ، وولى رعاة الدجاج والخنازير الأدبار ولاذوا بالفرار فأمر المثنى بعض رجاله باحتلال معقل الفرس ، ثم تبع هو والمسلمون ، الفارين يقتلونهم حتى انتهوا بهم الى أبواب المدائن .

اثر الواقعة ...

اولا ... في جانب الفرس

نزلت أنباء الهزيمة بشهرزان نزول الصاعقة فأصابته

الحمى وثقل عليه المرض فمات ...

ويقول الطبرى « انهزم هرمز وبلغت أخباره مسامع

الملك فاغتم لذلك أشد الغم ثم انه مرض ولم يطل عهده حتى مات .

وبعد موته تعرضت الفرس لهزات داخلية عنيفة اذ كثرت الاختلافات الداخلية ، ولم يجد أهل الفرس من يولونه الملك بعد شهرزان فولوا بوران بنت كسرى ، ولم تدم طويلا في الملك اذ خلعت وتولى العرش سابور ابن شهرزان ، وهذا قتل بايعاز من آزر ميدخت ابنة كسرى التي تولت العرش مكانه .. ولابنة كسرى هذه قصة.. فقد أراد سابور أن يزوجها وزيره الفرخزاد فغضبت لأنه ليس من بيت الملك ، وقالت لسابور « أتزوجني عبدى ؟ » ، فرفض أن يستمع اليها فاتفقت مع أحد فتاك العجم ويدعى ساوخش ، فقتله في ليلة العرس ، ثم انتقل معها الى حيث سابور فقتله وتولت هي الملك ، فطلب حاكم خراسان الزواج منها فرفضت وقتلته ، وعلم بمقتله ابنه وهو القائد الفارسي رستم فغضب ، وأقبل عليها من خراسان ، وهزم في طريقه اليها جيوشا تابعة لها ، ثم حاصر المدائن ودخلها وقتل آزر ميدخت وساوخش .

وما زال الفرس يولون الملك واحدا بعد الآخر ثم يقتلونها حتى تولاه يزيدجرد (١) فولى أمرهم رستم الذي حارب المسلمين في القادسية وقتل .

(١) يقول المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل أن رستم عين بوران على العرش على أن تملكه عشر حجج ، ثم يكون الملك في =

ثانياً ... في جانب العرب

كان انتصار المسلمين ذا وقع عظيم في البلاد كلها ،
فقد صار غربى الفرات كله تحت السيطرة الاسلامية ،
وتعنى عبدة بن الطيب السعدى بانتصار المسلمين
فقال :

هل حبل خولة بعد البين موصول
أم أنت عنها بعيد الدار مشغول^(١)

ولالأجبة أيام نذكرها
وللنوى قبل يوم البين تأويل

حلت خويلة في حى عهدتهم
دون المدائن فيها الديك والفيل
يقارعون رعوس العجم ضاحية
منهم فوارس لا عزل ولا ميل^(٢)

وتعنى الفرزدق بالمشنى الذى أظهر بسالة تاريخية فى قتله
الفيل ، فقال :

= ال كسرى فى الرجال منهم ان وجدوا ، والا ففى النساء ،
استوزرت بوران رستم وأطلقت يده فى أمور الدولة ، وجعلته
على الجند ، وأمرت أهل فارس أن يسمعوا له ويطيعوا .

(١) خولة ... هى زوج عبدة بن الطيب .

البين ... أى البعد .

(٢) لا عزل ... أى معهم سلاحهم .

لا ميل ... أى غير مائلين عن السروج .

فمنهن بيت الحوفزان الذى به
تفلل بكر حد نبل المناضل^(١)
وبيت المثنى عاقر الفييل عنوة
يسابل اذ فى فارس ملك بابل

(١) كان الفرزدق قد عدد فى القصيدة بيوت بكر بن وائل
ويعنى بـ منهن أى من بيوتها .
المناضل ... أى المقارع للأعداء
(ديوان الفرزدق ص ١٠٤)

موقعة النمارق

كان انتصار المشنى فى موقعة بابل فتحا لمجال الغزو أمامه فقرر أن يغزو المدائن ، ولكنه وجد نفسه فى حاجة الى امدادات جديدة يقوى بها جيشه ليستطيع أن يتم فتوحه وأن يؤدى رسالته ، وأن يحرس الحدود الواسعة الأطراف التى أصبح مسئولاً عن الأمن فيها ، وأن يصون حياة هذا العدد الضئيل من الرجال الذى يحارب تحت امرته ، ولهذا كتب الى أبى بكر ينبئه بأخبار انتصاراته على الفرس ، ويصور له الحالة التى أصبح عليها ، ويستأذنه فى الاستعانة بمن ظهرت توبتهم من أهل الردة ، وأوضح له أن هؤلاء يطمعون فى مغنم الغزو ، وأنه يرى فيهم حماساً ونشاطاً ورغبة صادقة فى محاربة أهل الفرس .

لقاء أبى بكر ووصيته ...

ولما أبطأ عليه جواب الخليفة عيل صبره ، واشتد قلقه وخشى أن يجمع الفرس له جموعاً لا يقدر عليها ، وخطوط مواصلاته بعيدة وهم يحاربون فى أرضهم حيث وسائل الامداد والمعيشة متوفرة كثيرة ، فقرر أن يعالج الأمر بنفسه وأن يتصل بالخليفة اتصالاً مباشراً فقرر السفر الى المدينة لينتقى بالخليفة ، وليقدم له الصورة الواضحة المعالم للحالة فى بلاد الفرس .

وترك الجيش تحت قيادة واحد من فرسانه يدعى بشير ابن
الخصاصية^(١) وغادر البلاد الى المدينة ، فما أن وصلها حتى فوجيء
بما لم يكن في الحسابان فقد وجد أبا بكر طريق الفراش يقاسي
من مرضه الأخير ، ورغم أن أبا بكر كان في شدة المرض غالب عليه ،
فقد رأى أبو بكر أن يستقبل قائده فلا يجوز للمرض أن يحول
دون اهتمامه بشئون الدولة ، ولا يجوز له وهو في أشد حالات
التعب أن يتخلى عن مسؤوليته كخليفة للمسلمين وكمسئول مسؤولية
ضخمة عن حياتهم وسياستهم وأحوالهم ، وعندما التقى الخليفة
والقائد ، حدثه المثني في أمر الحملة والمدد ، وأوضح له حقيقة
الموقف في فارس ، ودافع دفاعا مجيدا عن رأيه ، حتى اقتنع
الخليفة فبعث في استدعاء عمر ، وكان قد استخلفه وأوصى
الصحابة بمبايعته بعد موته ، فلما جاءه عمر حدثه في أمر امداد
المثني ، وقال له « اسمع يا عمر ما أقول لك ، ثم اعمل به ، واني
لأرجو أن أموت في يومي هذا ، فان أنا مت فلا تمسين حتى تندب
الناس مع المثني ، وان تأخرت الى الليل ، فلا تصبحن حتى تندب
الناس مع المثني ، ولا تشغلنكم مصيبة وان عظمت عن أمر دينكم ،
ووصية ربكم ، وقد رأيتني متوفى بعد رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، وما صنعت ، ولم يصب الخلق بمثله ، وبالله لو أني أني
عن أمر الله وأمر رسوله لخذلنا ولعاقبنا فاضطرت المدينة نارا ...

(١) هو بشير بن معبد السدوسي .
الخصاصية هي جدته .
بشير ... صحابي .

وان فتح الله على أمراء الشام فاررد أصحاب خالد الى العراق فانهم أهله وولاية أمره وحده ، وهم أهل الغداوة بهم والجرأة عليهم .
وهكذا رأى أبو بكر رآيه فيما عرضه عليه المشنى ، ولم يشأ أن يؤخر وصيته في أمر العراق خوفا من أن يضل من بعده ، ولهذا رسم سياسة الفتح بعد موته ليعمل خليفته في حدودها .
ومن عجب أن أبا بكر رأى أنه يجب ألا يشغل موته المسلمين عن أمورهم ، فما موته الا حدث لا يرقى الى مستوى مصلحة المسلمين وأوامر الدين التي تدعو الى الجهاد في سبيل الله ، ولهذا يجب ألا يؤخر موته المسلمين عن القيام بالدور الكبير الذى ألقى على عاتقهم ، وألا يشغلهم عن اتمام العمليات التي تدور رحاها في العراق وفي الشام ، وهذا أمر لا يستغرب حدوثه من أبى بكر ، فهو قد عاش فترة عصيبة بعد موت الرسول ، ولم يشغله موت الرسول عن مصلحة المسلمين ، أو عن أمر الدين ، وانما حمل الرسالة بعد موت الرسول مباشرة وسوى الخلافات بين المسلمين ، وجهاز الجيوش وحارب الردة ، ثم حرك أتباع محمد من الجزيرة العربية الى الشام والعراق ، فكيف يسمح لنفسه اذن أن يشغل موته المسلمين عن رسالة الاسلام العظيمة ، وعن أمور دينهم وحياتهم ومستقبلهم ، لقد رسم الخطوط العريضة لما يجب أن يتبع بعد موته واستنهض بكلامه الى عمر الهمة والحماس ، ودعا الى اتخاذ الخطوات الايجابية الفعالة السريعة لمعاونة المشنى في حربه ضد الفرس .

ووعده عمر أباً بكر أن ينفذ إرادته وأن يحقق رغبته .
فلما توفاه الله عمل عمر بوصيته فور الوفاة .

الدعوة إلى الخروج ...

وما إن تولى عمر الخلافة حتى أصدر أوامره بأن يشترك من أظهر التوبة من أهل الردة في حرب فارس ويكون بذلك قد وافق على أمر عارض فيه أبو بكر من قبل ورفض إقراره .

ثم كان أول ما قام به في صبيحة اليوم الثاني لدفن أبي بكر أن ذهب إلى فناء مسجد الرسول ورفع راية الجهاد فاجتمع الناس من كل حدب وصوب حتى كثر عددهم ، فتحدث اليهم في أمر الخروج إلى فارس تنفيذاً لتعليمات أبي بكر الصديق ، فلم يستجب له أحد فظل على ما فعله حتى اليوم الرابع ، ورأى المثني أن الناس تخشى الخروج إلى فارس لأنها — كما تبين له — أثقل البلاد عليهم لشدة سلطانهم وقوة شوكتهم ، ولكثرة قهرهم الأمم ، فوقف عندئذ في الناس خطيباً مهوناً الأمر داعياً إياهم إلى الاستجابة لمطلب الخليفة ، وقال لهم « أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه فقد تبجحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقى السواد ، وشاطرناهم واجترأ من قبلنا عليهم ولها إن شاء الله ما بعدها (١) » .

ووقف من بعده الخليفة عمر بن الخطاب وخطب في الناس

(١) تبجحنا ... أي تمكنا من المقام .
ريف فارس ... أي أرض فارس ذات الزرع والخصب .
شقى السواد ... أي طرف العراق الغربي .

قائلا « أيها الناس ان الحجاز ليس لكم بدار الا على النجعة ، ولا يقوى عليه أهله الا بذلك ، أين الطراء يهاجرون عن موعود الله ، سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها فانه قال (ليظهره على الدين كله) ، والله مظهر دينه معز ناصره مولى أهله مواريث الأمم ... أين عباد الله الصالحون » .

وكان أول منتدب هو أبو عبيد بن مسعود الثقفي الذي وقف وسط الناس يوجه الحديث الى عمر قائلا « يا أمير المؤمنين انا سمعناك وأطعناك وأنا أول من أجاب هذه الدعوة ... أنا وقومي وعشيرتي » .

وأحس المسلمون بعظم المهمة وبخطورتها فاندفعوا يعلنون استجابتهم فوقف من بعد أبي عبيد سعد بن عبيد وسليط بن قيس ، ثم تتابع القوم حتى أن أحدهم قال للخليفة « يا أمير المؤمنين انما كان قعودنا عن غزو هؤلاء الفرس الى يومنا هذا شقشقة من شقاشق الشيطان ، واني قد وهبت نفسي لله ومن أجابني من بني عمي ، ومن اتبعني » .

واستمر التسابق الى الخروج ، واتخذ صورة رائعة جليلة للمشاعر الاسلامية التي تملك المسلمين حينما يحسون بما ألقته المقادير على أكتافهم من مسئولية وأعباء .

وحينما بلغ عدد الراغبين خمسة آلاف طلب القوم من عمر أن يعين قائدا لهذا المدد على أن يكون أحد كبار الصحابة من المهاجرين أو من الأنصار ، ولكن عمر أبى هذا الشرط ورفضه لأنه يعلم أن الاسلام يسوى بين الناس جميعا عند تولى الوظائف العامة

فلا يتولاها الا الأصلاح ، ولا فضل لعربي على أعجمي الا بالتقوى ، وأن الاسلام جعل الناس جميعا على قدم المساواة كأسنان المشط ، ولعل عمر قد تذكر في هذه اللحظات موقف الرسول الكريم حين ولى زيد بن حارثة قيادة جيش من المسلمين وكان تحت قيادته كبار رجال الاسلام ، ولهذا قال عمر حين رأى الناس يشترطون اسناد القيادة الى واحد من كبار الصحابة « ان من سبق الى الدفع وأجاب الى الدعاء أولى بالرياسة » .

ولهذا أمر باستدعاء أبى عبيد بن مسعود ، فعقد له القيادة وزوده بنصحه ، وطلب منه أن يستشير اخوانه وأصحابه فى شئون الحرب والا ينفرد برأيه ، والا يتعجل الأمور فى الحرب ، وأن يحسن معاملة جنده من أصحاب رسول الله .. وكان مما نصحه به أن يستشير سليط بن قيس لجرأته وتجربته ، وكان عمر يثق به كثيرا ، ولهذا قال لأبى عبيد (١) ، « انه لم يمنعنى أن أوامر سليطا الا سرعته فى الحرب ، وفى التسرع الى الحرب ضياع الا عن بيان ، والحرب لا يصلح لها الا الرجل المكيث (٢) » .

الموقف فى الحيرة ...

سبق المشى القوات العربية الى الحيرة ، فقد كان هناك وقت طويل أمام أبى عبيد حتى يعد نفسه ويرتب شئونه وشئون رجاله

(١) ذكر البلاذرى أن عمر وجه الكلام الى سليط فقال له « لولا عجلة فيك لوليتك ولكن الحرب زبون لا يصلح لها الا الرجل المكيث » .

(فتوح البلدان ص ٢٥٩)

(٢) المكيث ... أى الرزين الذى يعرف الفرصة .

وقواته ، ولهذا قال عمر للمثنى «النجاح حتى يقدم عليك أصحابك» .
وعندما وصل المثنى الى الحيرة ، وجد أن الفرس بعد أن
استتبت الأمور فيها واستقرت أحوالها بدأت تنشط من جديد
فأعدت جيشين يقودهما رستم ، توجه أحدهما الى الحيرة بقيادة
جبان ، والآخر الى أطراف ذى قار في موقع يسمى كسكر بين
الفرات ودجلة بقيادة القائد نرسى .

وكان رستم قد قام بنشاط بعيد المدى في إثارة مشاعر الفرس
ضد المسلمين فدعا الدهاقين الى أن يشوروا بالمسلمين وأشعل روح
القتال عند أهالى المدن ، وأثار أهالى الرساتيق (١) ليثيروا القلاقل
ضد الجيش الاسلامى ولعله بذلك كان يطمع فى أن يقطع خط
الرجعة على قوات المثنى ، وأن يصيب خطوط مواصلاته فيشل
حركته ويمنع مرونة قواته .

وعلم رستم فيما علم أن المثنى قد وصل الى قواته وحده وأن
جيشا آخر ما زال فى الطريق ، ولهذا فكر فى أن ينتهز الفرس
الفرصة فيمحققوا قوات المثنى وحدها قبل أن يصل اليه المدد الذى
على الطريق ، وبذلك يستطيع أن ينفرد بالمدد ، ويقضى عليه عند
وصوله ، وهكذا يكون قد قضى على القوات الاسلامية قبل أن
تتاح لها فرصة اللقاء والتجمع لمواجهته .

*** رستم

ورستم الذى تولى قيادة قوات الفرس هو ابن حاكم خراسان،
وهو أحد رجال الحرب ، كان جريئا طموحا يثير طموحه اعجاب
(١) الرساتيق جمع رستاق أى القرية .

الفرس وتعلقهم به ، وأعجب به المؤرخون ، وذكروا أنه كان عالما بالنجوم ، وأنه رأى فيها ما ل فارس ، حتى أنه سئل حينما باح بما رآه كيف يتولى أمر فارس وهو يعلم نهايتها ويرى فيها ما يراه ؟ فأجابهم « الطمع وحب الشرف » .

ولقد أثبتت الأحداث في مستقبل الأيام صدق ما توقعه رستم فبعد عدة معارك انتهى أمر الفرس في أرضهم واكتسحت القوات الإسلامية جحافل الفرس وقضت عليها ، واستولت على البلاد كلها ، ولم يعد يعبد فوق بلاد الفرس سوى الله تبارك وتعالى ، وأنطوى الناس جميعا تحت راية الاسلام ، ودخلوا فيه عن اطمئنان وإيمان وثقة ، وأصبحت بلاد الفرس تمثل رقعة من الدولة الإسلامية المجيدة التي أقامها أتباع محمد بأرواحهم وبدمائهم .

موقف الثنى ...

أحس المثني بالدور المعنوي الكبير الذي قام به رستم حتى استطاع أن يثير مشاعر أهل العراق وعواظهم ضد المسلمين ، ووجد أن جنود رستم قد عبثوا معنويا ، وأنه لا قبل لجنده بملاقاتهم ، والفرق بين الجيشين واضح بين ، ولكنه على الرغم من هذا لم يخش الموقف ، وإنما درسه عن عمق وفهم جديرين بعقليته العسكرية الجبارة ، وادراكه السليم للموقف الحربى ومتطلباته ولهذا رأى أنه ليس من الحكمة أن يدخل معركة ، وأن يخوض غمارها دون أن يكمل حشده كما رأى أنه من غير الحكمة أن يتوغل في بلاد عدوه فيطيل خطوط مواصلاته بين مواقع

جنده وبين قاعدته التي يعتمد عليها ، أو بين موقعه الذي يحتله وبين المدد الذي هو على الطريق اليه .

واتتهى تفكيره الى أن يكون أكثر حذرا ، فقرر أن ينسحب من الحيرة الى موضع يسمى خافان حتى لا تفاجئه قوات عدوه فتقطعنه من الخلف .

وهكذا آثر المشنى أن يتعد عن وجه عدوه ، وأن يؤخر لقاءه معه حتى يكمل حشده ، ويتم استعداده للمعركة الفاصلة .

ولكن لماذا اختار المشنى خطة الانسحاب من الحيرة ؟

ان المشنى باتخاذ هذه الخطوة يكون قد ضمن أمرين هامين..

الأول : اختياره ميدان المعركة الذي يراه صالحا لأن يخوض فيه معركة النجاح ، فالموقع الذي انسحب اليه يقع على تخوم الصحراء ، والمشنى جندي عربى وُجنوده من العرب الذين عاشوا في الصحراء ، وقضوا حياتهم بين رمالها وخاضوا غمار حروب كثيرة بين أرضها في جاهليتهم أو في اسلامهم ، فهم اذن جند مدربون على القتال في الصحراء يعرفون أسرارها ، ويعرفون الخطط التي تتبع فيها ويجيدون الكر والفر والهجوم والادبار ، فهم اذن يفوقون في فن حرب الصحراء عدوهم الذي يعيش في أرض كلها حقول ونخيل ومبان وجداول وأنهار ، أى أن عدوهم هذا لا يستطيع الحرب في أرض

مكشوفة ، على حين أنهم يجيدون هم هذه الحرب
اجادة فائقة .

اذن فلقاء فوق أرض صحراوية مكشوفة يوحى بأن
النصر سيكون في ركا بهم .

الثانى : لو فرض ودارت معركة على تخوم الصحراء ،
وكان النصر فى هذه المعركة للفرس فان وجود
العرب فى الصحراء يمنحهم العمق الاستراتيجى فى
الانسحاب الى الوراى فى الصحراء الواسعة المترامية
الأطراف فتقل بذلك خسائرهم ، ويستطيعون أن
يعيدوا تنظيم قواتهم وأن يتخذوا من الصحراء نقطة
ارتكاز وتجمع يشنون منها الغارات لاستعادة
ما فقدوه ، هذا فوق أن الطريق الى القيادة العامة
فى المدينة يكون مفتوحا أمامهم يستقبلون منه المدد
الذى يقوى من عزمهم ويشد أزرهم ، ويجعلهم
أكثر قوة وأشد عزيمة ويهيىء لهم فرص التقدم
لملاقاة العدو فى جموع غفيرة ، وأعداد هائلة
واستعدادات تضمن النصر وتؤكدده .

القيادة لأبى عبيد . . .

خرج أبو عبيد من المدينة على رأس خمسة آلاف
وفى الطريق انضم اليه كثيرون فانه كان لا يمر بقوم من
العرب الا رغبهم فى الجهاد والغنيمة وحشهم على القتال فى
سبيل الله .

وانضم اليه أيضا كل من حسن اسلامه من أهل الردة .
وعندما بلغ حدود العراق كان تحت امرته عشرة آلاف مقاتل.
والتقت قواته بقوات المثنى ... وتولى أبو عبيد القيادة .
ومرة أخرى يعود المثنى الى الصفوف الخلفية ، ويختفى من
صفوف القيادة ... ولا يؤثر هذا في نفسيته أو معنوياته لأنه
صاحب رسالة وكل ما يشغله ويأخذ عليه تفكيره ، هو أن تتحقق
هذه الرسالة سواء أكان هو في مكان القيادة ، أم كان جنديا
بسيطا يعمل تحت قيادة غيره ، والمثنى في هذا استمد احساساته
ومشاعره من الدعوة الالهية الكريمة الى الجهاد والبذل في سبيل
الله وفي سبيل الدين ، تماما كما استمد خالد بن الوليد احساساته
ومشاعره حين عزله عمر بن الخطاب خلال معركة اليرموك عن
قيادة الجند وعين مكانه أبا عبيدة بن الجراح قائدا لجيوش
المسلمين في بر الشام فقد ظل خالد يعمل كجندي بسيط تحت
امرة أبي عبيدة طوال فتوح الشام ونسى أنه كان القائد الذي
يأتمر الكل بأمره ، وينفذ مشيئته ، ولم يعد يذكر سوى أنه جندي
عليه الطاعة والجهاد .

اللقاء

نظم أبو عبيد قواته وجعل المثنى بن حارثة قائدا على الخيل
ثم تقدم الى النمارق (١) ليلتقى هناك بقوات جابان ، والتحم
الجانبان في معركة عنيفة دار القتال خلالها شديدا واستمر فترة

(١) النمارق .. موقع بين الحيرة والقادسية .

طويلة والمسلمون يقاتلون في قوة وعنف وثقة وأمل ورغبة في الانتصار ، وكان لهم ما أرادوا ، فاتتصروا انتصارا عزيزا ، ووقع جابان أسيرا في يد رجل عربي تيمى يدعى مطر بن فضة وكان العربي لا يعرف جابان ، وإنما يجهل حقيقته فحاول جابان أن يخدع الرجل فوعده بمال وبغلامين وقال له « انكم معشر العرب أهل وفاء فهل لك أن تؤمنني وأعطيك غلامين أمردين خفيفين في عملك وأعطيك كذا ... ، وكذا ... » وأجزل جابان للرجل الوعد ثم قال له « أدخلني على أميركم حتى يكون ذلك بمشهد منه » ، فأدخله الرجل على أبي عبيد الذي لم يعرفه أيضا ، وأمنه فشهد أبو عبيد على ما تم بينهما .

وتقول بعض المراجع ان مطرا أمن الرجل ثم أطلق سبيله فأخذه بعض المسلمين الى أبي عبيد وأخبروه بأنه دهقان (١) كبير وأشاروا بقتله ولكنه أجابهم « انى أخاف الله أن أقتله ، وقد أمنه رجل مسلم ، والمسلمون في التواد والتناصر كالجسد ما لزم بعضهم لزم كلهم » ، فغضب بعض المسلمين وقالوا له « انه الملك ، وانه هو الذى غدر بنا وحاربنا » فقال لهم « وان كان قد غدر فأنا لا أغدر » ، ثم أمر بالأسير فترك .

وان ترك جابان واخلاء سبيله وهو بين يدي أعدائه المنتصرين دليل واضح وبرهان ساطع على نفسية العربي التي هذبها الاسلام

(١) جاء في بعض المراجع أنهم قالوا له « أقتله فانه الأمير » ، فقال « وأن كان الأمير فأنى لا أقتله وقد أمنه رجل من المسلمين . . الى آخر الحديث .

وقومها فجعل المسلم حين يعد يحفظ وعده ، وحين يتعهد يصون عهده ، لا يخون كلمة ، ولا ينقض اتفاقا ، ولا يرجع في أمر ارتبط به ، وإنما يفقدى هذا كله بالروح والدم .. فما هو ذا القائد العربى يملك ناصية عدوه الذى غدر بالمسلمين والذى أثار عليهم البلاد ، والذى جاءهم مقاتلا راغبا فى قتلهم ، وفى ايقاع الهزيمة بهم فىأبى القائد العربى وهو المتحكم فى أمر أسيره أن يمسه ويأبى الا أن ينفى بوعده قطعه على نفسه أحد جنوده فيخلى سبيل الأسير وهو بذلك يؤكد مدى التزام القائد بما التزم به جنديه ، ويؤكد فى صورة عملية واضحة أمانة العربى ووفاءه بالوعد ورجولته وشهامته .

وغنم المسلمون غنائم كثيرة فقسمها أبو عبيد ، ثم بعث الى الخليفة بالأخماس ، ولقد صور المثنى بن حارثة هذا النصر العظيم فى معركة النمارق فى قوله ...

غلبنا على خفان بيضا مشيخة

الى النخلات السمر فوق النمارق^(١)

وانا لنرجو أن تجول خيولنا

بشاطى الفرات بالسيوف البوارق^(٢)

(١) المشيخ ... أى المقبل عليك .

(٢) البوارق ... أى اللوامع .

موقعة السقاطية وباروسما

الأعداد للمعركة ..

بلغت أنباء الهزيمة رستم وعرف الفرس ما حل بجابان ، فأمر رستم الجالينوس وهو من صناديد أبطالهم أن يسرع لنصرته ، وأن يلحق نرسى فى كسكر وقرر الجالينوس أن يغذ السير الى مواقع القوات .

وكان المثنى على علم تام ودائم بأخبار الفرس فقد نشر عيونه فى كل مكان تأتية بأخبار الفرس .. أخبار القوات .. تحركاتها .. اتجاهاتها .. خطتها .. قاداتها .. معداتها ..

وجاءته الأنباء أن قوات نرسى فى كسكر ليست كبيرة العدد ولا عظيمة العتاد ، وأن نرسى ينتظر وصول نجدات سريعة اليه تشد من أزره .

وأسرع المثنى يحمل أنباء هذه وأخباره عن الفرس الى أبى عبيد ويشير عليه بالتحرك السريع وشن الحملة على العدو قبل أن يقوى ساعده ويشتد واستجاب له أبو عبيد وأمر قواته بالتحرك السريع المتصل لمواجهة نرسى فى كسكر .

المعركة ...

وفي مكان يدعى السقاطية (١) التقى أبو عبيد بقوات نرسی وحدها قبل أن تصل إليها قوات الجالينوس .
وكان المشنى على الخيل أيضا .

ودارت المعركة بين الطرفين عنيفة حامية ثبت لها العرب وانهمز الفرس ولاذ قائدهم نرسی بالفرار وترك للمسلمين مغنم كثيرة وخزائن وأموالا وأطعمة ، فاستولى عليها أبو عبيد وبعث الى الخليفة بالخمس ، ووزع على جنده المغنم ومن بينها مقادير عظيمة من الأطعمة ، ويحكى أن المسلمين وجدوا ضمن ما وجدوه من أطعمة لونا من التمر يدعى الترسيان كان ملوك فارس يجبونه ، فاقتمسوه بينهم وجعلوا يطعمون منه الفلاحين ، وبعثوا بجزء منه الى الخليفة وكتبوا له « ان الله أطعنا مطاعم كانت الأكاسرة يجمعونها وأحبنا أن تروها ولتذكروا انعام الله وأفضاله » .
وبلغ أبا عبيد أن الجالينوس وصل بجنده الى قرية باروسما فحرك قواته الى هناك وتقابل مع الجالينوس واستطاع أن يهزمه هزيمة مرة ، فلم يملك سوى الفرار من أرض المعركة — تماما كما فر من قبل نرسی — حتى بلغ مع الفارين من جنده المدائن .

المطاردة ...

أمر أبو عبيد قواده بالمطاردة وتعقب الأمراء الفارين ، وتقدم قواده والمشنى في مقدمتهم فاحتلوا سواد العراق ونشروا الرعب

(١) موقع قرب كسكر .
ذكرت في بعض المراجع السقاطيين .

في الناس وأعادوا الى الأذهان ذكرى انتصارات خالد بن الوليد.
وهكذا تم النصر لأبي عبيد وفي ذلك يقول عاصم بن عمرو ..
صبحنا بالبقايس رهط كسرى
صبوحا ليس من خمر السواد
صبجناهم بكل فتى كسى

وأجرد سابع من خيل عاد
وجاء قادة الفرس الى المثني وعرضوا عليه الطاعة ، وطلبوا
منه الذمة عن باروسما ونهر جوبر ، وكان على رأس هؤلاء فروخ
وفرونداذ فبعث بهما المثني الى أبي عبيد الذي صالحهما على
شيء معلوم .

القائد العربي وجنده ...

حدث أن جاء فروخ وفرنداذ بأنية فيها بعض الأطمعة الفارسية
وقدماها الى أبي عبيد وقالوا له « هذه كرامة أكرمناك بها وقرى
لك » فسألها « أأكرمتم الجند وقرتموهم مثلى » فأجاباه
« لم يتيسر لنا ونحن فاعلون » ، فأبى أن يتناول شيئا لم يقدم
مثله لجنده فلا حاجة له فيما لا يسعه ويسع جنده ورد اليهم
الآنية دون أن ينال منها شيئا .

وعندما صالح أبو عبيد الاندزرغر في باروسما جاءه بمثل
ما جاءه به فروخ وفرونداذ فسأل «أأكرمتم الجند بمثله وقرتموهم»
فأجابوه « لا » فرده اليهم وقال انه لا حاجة له فيه طالما أن جنده
لن ينالوا منه شيئا .

اذن فقد أبى القائد العربي أن ينال شيئا لا يناله جنده .. وهذا

أمر يستحق منا وقفة .. فالقائد العربي صحب قومه من بلادهم .. تركوا أهلهم وأحوالهم ومعيشتهم ، وجاءوا تحت قيادته ليحاربوا من أجل الاسلام .. من أجل الدين .. من أجل العقيدة .. من أجل حياتهم وحياة الناس جميعا .. من أجل مستقبل باسم فاضل مشرق لهم وللانسانية كلها .. وأهرقوا دماءهم ، وبذلوا من ذات أنفسهم، وسمعوا له وأطاعوا ، فكيف اذن ينال شيئا لا ينالونه هم ، وكيف يقدم له شيء فيفوز به دونهم والاسلام قد سوى بينهم في الجهاد، وجعلهم اخوة متضامنين في السراء والضراء ، والرسول الكريم قد علم المسلمين الخصال الحميدة والخلق الكريم فلا يستأثر واحد بفيء المسلمين ولا يترفع عن عامة المسلمين ، ولا يسلب مال البلاد التي أحرزها المجاهدون بسيوفهم وأسألوا على جوانبها دماءهم ، والخليفة عمر قد أوصاه أن يرعى جنده وأن يشملهم بالرعاية والعناية .. والقيادة الناجحة لا تبيح للقائد أن يتميز عن جنده حتى لا تتأثر معنوياتهم ، فهم اخوته في المعركة .. زملاؤه في القتال .. شركاء له في الفوز .. يقاسمونه في الميدان حلو الحياة ومرها .. ويشاركونه خیر المعركة وشرها .

وهكذا كان أبو عبيد صورة طيبة لجنده وقدوة صالحة ومثالا عاليا ، قويم مشربه ، مستقيم مذهبه ، يجب المسلمين قدر حبه لنفسه ، ويكره لهم ما يكره لنفسه ولا يسيغ شرابا أو طعاما يحرم منه جنده .

بهذه الأخلاق والخصال والمبادئ والمثل انتصر أبو عبيد
واتتصر — فى جميع عصور الاسلام — غيره من قادة المسلمين
الذين دخلوا الحروب ، وخاضوا المعارك دون أن يغيب عن ذهنهم
أنهم يحملون بجانب سيوفهم أرواحا طاهرة وثقوسا نقية وأنهم
أصحاب مثل ومبادئ وضمائر وأخلاق .. على هذه الأسس بدأ
الاسلام وبها ذاع وانتشر ومن أجلها فاز واتتصر .

موقعة الجسر

قلنا ان رستم كان قائدا صاحب طموح وكبرياء ..
ولهذا هزته الهزائم المتكررة واندحار قواته واستسلام
قاداته الواحد بعد الآخر وعز عليه أن تنهزم جيوش فارس العظيمة
أمام هؤلاء العرب الأجلاف فجمع خاصته وقال لهم « أي العجم
أشد على العرب فيما ترون ؟ » فأجابوه « انه ذو الحاجب (١)
بهمن (٢) جاذويه » فاستدعى رستم بهمن وكان أشد العجم على
العرب وعينه قائدا لجيش جديد عظيم العدد وافر العدة ، وضم
اليه الجالينوس وقواته وكان رستم قد عنفه لهروبه وهدده
بالموت ان عاد الى ذلك وقال لبهمن « ان عاد لمثل ما فعل فاضرب
عنقه » .

رأية كسرى

وأراد رستم أن يضعف معنويات العرب وأن يقلل ثقتهم في
أنفسهم وأن يزعزع تماسكهم ورباطة جأشهم ، كما أراد في ذات
الوقت أن يرفع معنويات جنده وأن يثير فيهم الرغبة في القتال
وأن يثير حماسهم ..

(١) سمي ذو الحاجب لانه كان يعصب حاجبيه ليرفعهما عن
عينيه كبرا .
(٢) سماه انوشروان بهمن لتبركه به .

من أجل هذا أصدر أوامره بأن ترفع راية كسرى في مقدمة الجيش .. وكانت راية كسرى هذه من جلود النمر طولها اثنا عشر ذراعاً ، وعرضها ثمانى أذرع وكانت تسمى درفش كايان ، ولا تحمّل أمام الجيش الا لأمر عظيم ..

ولهذه الراية قصة جاءت في أخبار الفرس ، وملخصها أن أحد ملوك الفرس جار على رعيته واسترسلت حكومته في الظلم الى حد لا يطاق ، فقام من رعيته يوماً رجل حداد خامل بين قومه عظيم في نفسه ، فخرج من حائوته ورفع على عصا طويلة الجلد الذى يربطه الحداد عادة في وسطه ونادى في الناس « من لا يطيق الظلم فليتبعنى » ، فتبعه عامة الناس وقتلوا الملك ورجال دولته وأسس هذا الحداد دولة الكسروية فاتخذ ملوكها راية الحداد شعاراً لهم ثم جعلوها من جلود النمر وسموها درفش كايان ، وكانوا لا يخرجونها — كما سبق القول — الا حين الحاجة القصوى .

مواقع القوات . . .

اجتمع تحت قيادة بهمن ثمانون ألفاً وعشرون فيلاً ، وكان معه الجالينوس وسائر أبطال الفرس ، وتقدم بهذه القوة الهائلة الجبارة فنزل بقس الناطف قرب الكوفة على شاطئ الفرات الشرقى .

وكان أبو عبيد في السقاطية فرحل منها واتصل بالمشنى في الحيرة ثم تحركت القوتان والتقتا معا واتخذ الجيش العربى

معسكرا على شاطئ الفرات عند المروحة قرب البرج والعاقول
على ضفة النهر المقابل للضفة التي يقع فيها معسكر الفرس .
وهكذا استعد الجانبان ولم يكن يفصل بينهما الا النهر .

الخطأ الأكبر . . .

بعث بهمن الى ابي عبيد يسأله أن يعبر أحد الطرفين النهر الى
الضفة الأخرى « اما أن تعبروا الينا وندعكم والعبور واما أن
تدعونا نعبر لكم » .

وجمع أبو عبيد أصحابه وعرض عليهم رسالة بهمن ، فأشار
عليه أصحابه بعدم العبور ، وأن يدع الفرس يعبرون اليه ، وكان
سليط بن قيس أشد الناس الحاحا بعدم العبور ، ولكن أبا عبيد
أخذته العزة ، فأبى قبول ما أشاروا به ورفض الأخذ برأيهم واتباع
مشورتهم وقال لهم « لا يكون أجراً على الموت منا بل نعبر
اليهم » وجزع سليط لهذا الرأي وجزع معه أصحابه ورجاله
وناشدوه ألا يعبر وأن يبقى في مكانه لأن فيه مجال وملجأ ومرجع
من فرة الى كرة .. قالوا له « ان العرب لم تلق مثل جنود فارس
مذ كانوا وانهم قد حفلوا لنا واستقبلونا من الدهاء والعدة
بما لم يلقنا به أحد ، وقد نزلنا منزلاً لنا فيه مجال وملجأ ومرجع
من فرة الى كرة » .

ولكنه أصر على رأيه وصمم على ما رآه وقال « لا أفعل ،
جئنت والله اذن » ، وحاول أن يسخف رأى سليط ووجوه الناس ،
ولكن سليطاً رد عليه بقوله « أنا والله أجراً منك نفساً وقد أشرنا
عليك بالرأى فستعلم » .

وكان رأى المثنى أيضا من رأى سليط وفي رأيهما السداد
وأضاف المثنى أنه اذا كان لا بد من العبور فليتم ذلك مفاجأة ، أى
مباغتة للفرس فى احدى الليالى دون أن يعلموا بالعبور ، فتكون
السيطرة بذلك فى أرض المعركة للعرب البواسل .. ولكن أبا عبيد
ضرب برأى المثنى عرض الحائط وأشاح عن هذا الرأى وأبى أن
يقبله وأن ينفذ سوى ما رآه .

وهذا التصرف من جانب أبى عبيد تصرف منحرف لا يجوز
لقائد مثله أن يقع فيه ، فالعسكريون فى جميع العصور قد اتفقوا
على قيام ما يسمى باسم هيئة أركان الحرب ، وهذه الهيئة تضم
خبراء من جميع الوحدات المقاتلة لتقديم الرأى والمشورة للقائد ،
فيجتمع هؤلاء الخبراء لبحث الموقف ودراسة العوامل وتقرير
الخطة التى ترى الأغلبية أنها الأصلح والأوفق والأحسن .

ومبدأ الشورى مبدأ رئيسى هام له أثره الكبير الخطير فى
العمليات الحربية ، والاسلام جعل الشورى أساسا هاما لحياة
الناس ، والرسول الكريم فى مواقف كثيرة تنازل عن رأيه
واستجاب لآراء غيره .. لم يتمسك برأيه فى موقف أبدا .. وانما
جعل الرأى للجماعة ، وكان يحاول دائما أن يستخلص ممن حوله
من أصحاب الآراء الطيبة والأفكار الصحيحة ، والنظر البعيد ،
والفكرة المفيدة والنظرة الصائبة .. وكان الرسول يرى أن رأى
الجماعة مهما كان فهو خير من رأى فرد واحد .. ففى غزوة بدر
قال الرسول لأصحابه قبل الخروج للغزوة « أشيروا أيها الناس »

فلما أشاروا بالخروج خرج ، وفيها أيضا أبدى الحباب بن المنذر رأيا أعجب به الرسول ، وكان ينتقد المكان الذي نزل فيه المسلمون اذ قال « ان هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم ، فننزل ثم نعور ما وراءه من القلب ثم نبني حوضا فتملأه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربوا » ، ونزل الرسول عن رأيه ووافق على رأى الحباب وأمر أن ينفذ .

وهكذا كان الرسول دائما .. وكذلك كان من بعده أبو بكر فعندما أراد أن يسير الجيوش الى العراق والشام جمع أصحابه عمر وعثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة ، والزبير ، وسعد بن أبي وقاص وأبا عبيدة بن الجراح واستشارهم فى الأمر فاستصوبوا رأيه وقالوا « ما رأيت من الرأى فأمضه ، فانا سامعون لك مطيعون لا نخالف أمرك » ، وقال له عمر « والله ما استبقنا الى شىء من الخير قط الا سبقتنا اليه .. والله قد أردت لقاءك بهذا الرأى الذى ذكرت فما قضى الله أن يكون ذلك حتى ذكرته الآن ، فقد أصاب الله بك سبل الرشاد .. سرب الخيل اليهم فى أثر الخيل ، وأبعث الرجال تتبعها الرجال والجنود تتبعها الجنود ، فان الله عز وجل ناصر دينه ومقر الاسلام وأهله ومنجز ما وعد رسوله » .

اذن فأبو عبيد قد أخطأ خطأ كبيرا حين تجاهل رأى أصحابه الذين وصاه عمر بن الخطاب أن يستمع اليهم وأن يشاورهم فى الأمر وأن يشركهم فى الرأى وأن يقيم لآرائهم وزنها .
ونحن نعجب كيف نسى أبو عبيد قول عمر له « انك تقوم

على أرض المكر والخديعة والخيانة ، تقوم على قوم قد جرعوا على الشر فعلموه وتناسوا الخير فجهلوه .

القتال ...

تمسك أبو عبيد برأيه .. ورأى المسلمون أن يسمعوا له ويطيعوا .. وكان عددهم عشرة آلاف .. وبدءوا العبور .. وكان المكان الذى تركه لهم الفرس وراء الجسر ضيقا على كثرتهم .. كان الفرس ينوون شيئا خطيرا فهم كما وصفهم عمر قوم غدارون واتخذوا من الغدر وسيلة لتحقيق مأربهم فشاءوا أن يدخلوا فى معركة حاسمة أعدوا لها العدة ، وتأهبوا فيها للقاء العرب لقاء تكون فيه خانتهم ونهايتهم .

وحين كان العرب يعبرون النهر لم يمهلهم بهمن بل أمر جنده أن يحملوا عليهم .. وكان جيشه — كما سبق القول — به عدد كبير من القبيلة عليها جلاجل .. وكانت هذه القبيلة فى المقدمة .. وما أن بدأ الهجوم على قوات المسلمين حتى تقدمت القبيلة وعلا رنين جلاجلها فأجفلت الخيل وخافت وفرت ، ولم يثبت الا القليل على كره ، ورأى أبو عبيد أن صفوفه توشك أن تختل فترجل وترجل جنده وتقدم الجميع صوب جيش الفرس ، وبدأ القتال . وكانت القبيلة كما قلنا فى مقدمة المهاجمين ، فما كانت تتقدم الى جماعة الا وتدفعهم فيضطربون ويفزعون ، ثم يفرون ، ورأى أبو عبيد الاضطراب الكبير الذى شمل صفوف رجاله فناداهم أن يتطعوا بطن هوادج القبيلة وأن يقلبوا عنها أهلها ، ثم يقتلونهم

واستجاب له رجاله ، وهاجموا الفيلة وقطعوا بطن الهوادج ، ولم يتركوا فيلا الا قلبوا رحله وقتلوا أصحابه .

وطالت فترة القتال واستمر سجلا بين الفريقين ساعات طويلة من النهار ، تارة يتقدم المسلمون وينتصرون ، وتارة ينهزمون ، فينتقدم عليهم الفرس .

مقتل أبي عبيد ***

وبينما الحرب على أشدها ، وبينما المقاتلون يتقاتلون في عنف ، كل يريد أن يلحق الهزيمة بالآخر كان أبو عبيد على رأس قومه ينظر الى ميدان المعركة وكله رغبة في النصر ، وأسعده أن يرى رجاله يقاتلون في شدة وعنف وبطولة ، وأسعده أن يجد الفرس وهم يسقطون من فوق ظهور الفيلة فلا تجد هذه من يقودها .

وبينما كان ينتقل من مكان الى مكان يشجع جنده ويقوى عزائمهم ويدعوهم للصبر في القتال ، وقع بصره على فيل أبيض كبير على ظهره قبة من الديباج الأحمر يضرب بخرطومه يمنة ويسرة فيشتت المسلمين ويوقع في صفوفهم ونفوسهم الاضطراب والخوف ، وأيقن أبو عبيد أن قتل هذا الفيل سيرفع روح المسلمين ويضعف روح أعدائهم فعزم على قتله ، وأحس أصحابه بخطورة ما عزم عليه فقالوا له « انا نخاف عليك » فقال « ان ربي ينصرني ولكن أخبروني هل لهذا الفيل من مقتل ؟ » ، فقالوا له « اذا قطع خرطومه فهو يموت » فقال « انى حامل على هذا الفيل ومن حوله من الفرس » فقالوا له « دع عنك هذا الفيل

ولك في غيره سعة» فقال «يا معشر الناس انى لحامل على هذا المخلوق فانظروا ان قتلته وهزمت من حوله فأنا أميركم ، وان قتلت فأخى الحكم أميركم ، فان قتل فولدى وهب أميركم ، فان قتل فولدى مالك ، فان قتل فولدى جبر ، فأبو محجن فالمنى» (١) .

وتقدم أبو عبيد الى الفيل وحاوره وداوره ، ثم ضرب خرطومه بسيفه ضربة قوية فقطعه وهو يرتجز ..

يا لك من ذى أربع ما أكبرك يالك فى يوم الوغى ما أنكرك
انى لعال بالحسام مشفرك وهالك وفى الهلاك لى درك
وأهاجت الضربة الفيل فاتجه نحو أبى عبيد ثم ضربه برجله وألقاه على الأرض ووقف فوقه وأزهق روحه (٢) ، فأسرع رجل من رجال أبى عبيد وقاتل الفيل حتى تنحى عنه ثم جر جسثه الى المسلمين ، وعاد الرجل وكله رغبة فى أن ينتقم من الفيل فيقتله ولكن الفيل فعل معه ما فعله مع أبى عبيد فلحق به الرجل (٣) .

(١) ان تعيين أبى عبيد للقادة بعد وفاته يذكرنا بموقف مشابه للرسول الكريم حين بعث بجيش لمحاربة الروم فى مؤتة فقد ولى الرسول زيد بن حارثة القيادة وأمر بان يتولاها من بعده اذا قتل جعفر بن أبى طالب ، فان قتل فيتولى القيادة من بعده عبد الله ابن رواحه فان قتل اختار المسلمون من بينهم من يتولى قيادتهم وهكذا كان الرسول الكريم أسوة حسنة للمسلمين جميعا .

(٢) قيل فى بعض الروايات ان أبى عبيد قطع خرطوم الفيل بسيفه ، ثم فرق من حوله ولكن تعثر ببعض القتلى فوق فخطبه الفيل وبرك عليه وقتله .

(٣) ذكر البلاذرى أن هذا الرجل هو أخوه الحكم .
ومراجع كثيرة لم تذكر اسمه .

كان أبو عبيد قد أوصى قبل موته -- كما أشرنا -- بأن يتولى أخوه الحكم القيادة من بعده ولكن الحكم قتل فأخذ الراية من بعده وهب ، وتقدم الى المعركة منشدا ..
 لا خير في هلا ولا في ليت من طلب الموت فهذا الموت ليس لأمر الله فيك فوت قد سطح النقع ومات الصوت وقتل وهب فتقدم أخوه مالك وحمل اللواء واشتبك مع القوم وقتل الكثيرين من الأعداء ثم قتل وهو يردد ..
 قد علمت واضحة الترائب مياسة بالثغر والحواجب
 أنى غداة الروع والتشاغب أشجع من ذى لبدة موائب
 قتال أقران مخوف الجانب

وقتل في القتال كثيرون من بنى ثقيف وهى قبيلة أبى عبيد . وكادت الهزيمة تلحق بالمسلمين وأحس بذلك رجل من ثقيف يدعى عبد الله بن مرثد الثقفى ، فلما رأى الهزيمة جزع وأراد أن يوقف المسلمين الذين اندفعوا هاربين ناحية الجسر ، كما أراد أن يعيد اليهم ثقفتهم بأنفسهم فبادر الى الجسر وقطعه وهو يصيح فيهم «أيها الناس موتوا على ما مات عليه أمراؤكم أو تظفروا؟» (١).

(١) يذكرنا هذا الموقف بموقف طارق بن زياد في مستقبل أيام المسلمين حين كلف بفتح بلاد الأندلس ورأى ما عليه أعداؤه من القوة والكثرة في العتاد ، وكان قد عبر بقواته الى أرض الأندلس فأمر بحرق الأسطول حتى يمنع المسلمين من التفكير في العودة وقال لهم قوله المأثور « العدو من أمامكم ، والبحر من خلفكم وليس لكم والله الا الصديق والصبر » .

وفي هذه اللحظات ضغط الفرس على المسلمين فانسحب هؤلاء ناحية الجسر وسيوف الفرس تأخذهم من ورائهم ، فلما وجد المسلمون الجسر مقطوعا جزعوا وتواثب كثيرون منهم الى القرات .. منهم من لم يصبر على الماء فغرق ، ومنهم من نجح في اجتياز النهر سباحة ، واستطاع البعض أن يفر بالخيل وسط القرات ، وهلك يومئذ من المسلمين أربعة آلاف ما بين قتيل وغريق ، وهرب ألفان وبقي ثلاثة آلاف .

وقتل في هذه المعركة من أبطال المسلمين سليلط بن قيس .
وقتل أيضا أبو مخنف أبو زيد الأنصاري وهو أحد جامعي القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .
قيادة المثني وبطولته ...

ومرت بالمسلمين ساعات حرج شديدة وكان الموقف عصيبا .. وكان لابد من اجراء سريع يحمي المسلمين ويحفظهم .. ومن كان لهذا الموقف غير المثني بن حارثة بطل بني شيبان وفارسها في موقف تطيش فيه العقول وساعة تهلع فيها القلوب .
لقد رأى المثني ما لحق بالعرب من نكبات وما هم فيه من شدة فتناول اللواء وتولى القيادة .

وفي سرعة مذهلة قدر المثني موقفه ووضع خطة لانسحاب قواته من المعركة دون خسائر وكانت خطته تقوم على الأسس التالية ...

١ — شد الجسر الذي قطعه عبد الله الثقفي ، واعادته الى مكانه حتى يسمح للقوات باستخدامه في العبور .

- ٢ — تشكيل قوة ضاربة تقوم بحماية المسلمين ومهاجمة
الفرس وتعطيلهم عن متابعة المسلمين أثناء العبور .
- ٣ — اعادة تنظيم صفوف المسلمين والسماح لهم بعبور
الجسر بترتيب وانتظام .
- ٤ — عبور القوة الضاربة في النهاية على أن تتولى هذه
القوة مهمة منع الفرس من العبور خلف القوات
الاسلامية .
- ٥ — الانسحاب الى الحيرة لاعادة تنظيم القوات من جديد
استعدادا للمارك أخرى قادمة .

ووضع المشى خطته موضع التنفيذ فأمر بأن يشد الجسر
ونادى عروة بن مسعود وقال له « انطلق الى الجسر فقف عليه
وحل بين العجم وبينه » ، ثم أمر بتشكيل جماعة من الفرسان
وضعتها تحت قيادته وأخذ يضرب بها في وجوه الفرس وهو يصيح
في الناس « يا معشر العرب أنا دونكم فاعبروا على هيئتكم
ولا تدهشوا ولا تفرقوا أنفسكم » ، وجعل يقاتل من ورائهم
ويحمي ظهورهم على حين اتجهت القوات العربية الى تنظيم
صفوفها وترتيب عبورها للجسر الى الضفة الغربية للفرات .

وبينما المشى يقاوم هجمات الفرس ويوقفها ويضعف موجاتها
جاءته طعنة رمح غاصت لها حلقات درعه في جنبه وجرح جرحا
بليغا ، ولكنه خلال القتال العنيف تناسى هذا الجرح ولم يهتم
بالألم الذي ألم به وظل يناضل في شجاعة وبطولة حتى عبر
المسلمون جميعا الجسر ، ثم عبره هو في النهاية وظل بعد عبوره

يقاوم الفرس ويمنعهم من العبور خلف المسلمين ، ولم يزحزحه عن هدفه وتنفيذ خطته هذا الجرح البالغ الذى أصابه . وهكذا أنقذ المشى بطولته النادرة الجيش العربى من مخالب الفرس وحرص على أن يمنع الدم العربى من أن يسفكه الفرس . وما ان نجحت القوات العربية فى عبور النهر — حتى أمر المشى بالانسحاب فورا الى الحيرة ، ثم تابع انحداره الى الجنوب حتى أليس ومنعت ظروف خاصة قوات ذى الحاجب من متابعته فقد بلغه أن خلافا خطيرا قد وقع بين الفرس ، وأنهم قد انقسموا فرقتين احدهما تؤيد رستم وتناصره والأخرى مع الفيرزان تناصب رستم العدا ، ولهذا رأى ذو الحاجب أن يعود الى المدائن ، وأن يترك خلفه جابان ومردنشاہ فى كثير من الجند وأمرهما بمطاردة المشى فتبعاه أملا فى القضاء عليه .

بطولة نصرانى ***

ولا يفوتنا أن نذكر موقفا لأبى زيد الطائى وكان نصرانيا (١) فقد كان قادما الى الحيرة فى بعض شتوله ورأى ما أصاب العرب فتحرکت فيه دماؤه العربية ومشاعره القومية وهاجت فيه قوميته فعز عليه أن ينهزم قومه ، وأن يكتب النصر لقوم يختلفون عنه لغة ودينا وتاريخا وقومية ومسكنا ودما ، فانحاز الى جانب المشى يقاتل مع العرب قتالا جبارا ، ولقد شجع موقفه هذا قوما من

(١) أسمه بالكامل حرصلة بن المنذر الطائى ويكنى أبا زيد وهو شاعر نصرانى عمر طويلا ومات فى خلافة عثمان بن عفان وهو على نصرانيته .

نصارى النمر ونصارى بنى تغلب فحففوا لمعاونة المشى بعد هذه المعركة فى معركة البويب ، وكان لهم دور كبير فيها .

التغصاء على المطاردين ...

عندما وصل المشى الى أليس أبلغه أهلها نبأ الخلاف الكبير الذى نشأ بين الفرس فنظم صفوفه فى سرعة وجمع رجاله ورتب قواته وانضم اليه عدد كبير من أهالى أليس وتحرك منها لمقابلة القوات التى جاءت وراءه لمطاردته ، وعندما التقى بها دار قتال عنيف واستطاع المشى أن يوقع بهذه القوات الهزيمة واستطاع أيضا أن يأسر القائدين الفارسيين جابان وماردانشاه ، ثم أمر فضربت أعناقهما (١) .

عمر وانباء الهزيمة ...

كتب المشى الى عمر بن الخطاب ينبئه بما حدث للمسلمين فى غزوة الجسر ، وذكرت بعض المصادر أن عبد الله بن زيد وكان قد شهد الجسر كان أول من قدم الى المدينة من المسلمين ، بعث به المشى فجد السير فى الفلوات ، ونهب الأرض نهباً على راحلته حتى وصل المدينة ودخل المسجد حيث كان الخليفة عمر بن الخطاب قائماً ونفسه تهتز من الألم والحزن وهو يكاد يبكى ..

(١) سبقت الإشارة الى أن جابان هذا وقع أسيراً فى أيدي المسلمين فى موقعة النمارق وأنه أسستامن أسره فأمنه ثم غد ورجع يقاتل المسلمين ويخفر ذمتهم فلما وقع أسيراً فى أيديهم كان لا بد من قتله .

نعتت الى أهل المدينة فتية
على مثلهم تبكى النساء الكواعب
نعتت الى الأنصار فتايتها التي
بها كانت الأحياء طرا تحارب

وكان عمر حتى وصول عبد الله في لهفة من أمر مقاتلة العرب
حتى أنه كان يخرج الى ضواحي المدينة كل يوم يتتسم أخبار
القتال من القادمين من العراق وكان يعود الى المدينة حزينا قلقا
كلما فشل في الحصول على أخبار القتال الدائر وعندما دخل عليه
عبد الله ، وأخذ ينشد شعره قاطعه وسأله « ما عندك يا عبد الله ؟ ،
أخبرني بأمر الجيش » ، فألقى عليه الخبر وقال « يا أمير المؤمنين
أنعى اليك أبا عبيد وأولاده فلان وفلان وفلان ، وأنعى اليك .. »
فسأله الخليفة « فالمنى ؟ » فقال « تركته جريحا » ، وتلقى عمر
الخبر ساكنا دون أن يبدو عليه الجزع (١) .

وعاد الى المدينة كثير من هؤلاء الذين فروا من المعركة
ودخلوها منكسى الرؤوس خزيا وعارا .

ونزل بعض منهم البوادي خشية أن يلقوا أهلهم فيعيروهم .
ورأى عمر حال هؤلاء وهؤلاء فرق لهم ورحمهم وجعل يدفع
عنهم برم الناس بهم وسخطهم عليهم ، وظل يقول « اللهم كل
مسلم في حل منى ، أنا فئة كل مسلم من لقي العدو ففطع بشيء

(١) ذكرت بعض المراجع أن عمر بكى وأن الناس من حوله
ضجوا بالبكاء في جنبات المسجد .

من أمره فأنا له فئة ، يا معشر المسلمين لا تجزعوا أنا فئتكم وإنما انحزتم الى ، يرحم الله أبا عبيد لو كان انحاز الى لكننت له فئة » .
وسمع عمر أن معاذ القاريء أحد بنى النجار وهو ممن فروا الى الجسر كان يبكى كلما قرأ قوله تعالى « ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » (١) ، فكان يقول له « لا تبك ، أنا فئتك وإنما انحزت الى » .

وهكذا خفف عمر روع الناس ودفع جزعهم وكان بالمؤمنين رحيمًا عطوفًا بارًا .

• • الجسر ومؤتة • •

وقعت غزوة مؤتة في عهد الرسول الكريم في السنة الثامنة للهجرة .

ووقعت موقعة الجسر في عهد عمر بن الخطاب في السنة الثالثة عشرة للهجرة .

وبين الموقعتين تشابه كبير عجيب نوضحه في النقاط الآتية ...

١ — قابل الجيش الاسلامي في الموقعتين عدوا يفوقه عددا وعدة .

٢ — نظمت قيادة المسلمين في الموقعتين مسألة تولى القيادة في حالة استشهاد القائد العام .

٣ — بعد استشهاد القادة في مؤتة تولى خالد بن الوليد

(١) سورة الانفال ١٦ .

القيادة وبعد استشهاد القادة فى الجسر تولى المثنى القيادة . ولولا فعال خالد والمثنى لظلت مؤتة والجسر نقطتى عار فى جبين المسلمين لانسحابهم وفرارهم وهزيمتهم .

٤ — كانت الخطة التى وضعها خالد والمثنى فى الموقعتين هى الانسحاب من أرض المعركة بأقل خسائر .

٥ — كانت خطة الانسحاب فى الموقعتين تقوم على أساس تشكيل قوة ضاربة تحمى ظهر القوات المنسحبة وتمنع العدو من متابعة المنسحبين .

٦ — قوبل الناس بعد الموقعتين باستياء شديد من جالب المسلمين فى المدينة ، وخفف الرسول من أثر الهزيمة عند مقاتلى مؤتة ، وخفف عمر من أثرها عند مقاتلى الجسر ، ففى مؤتة كان الناس يحثون التراب على الجيش ويقولون « يا فرار .. يا فرار .. فررتهم فى سبيل الله » ، وكان المقاتلون العائدون يتوارون ولا يحضرون الصلاة مع المسلمين خشية أن يسمعوا هذا القول فكان الرسول يقول عنهم « ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار ان شاء الله » .

موقعة البويب

التحشد العربى . . .

بعث المشنى عقب هزيمة الجسر الى الخليفة عمر بن الخطاب يطلب منه أن يمدّه بعون سريع ومدد عاجل ولم ينتظر المشنى المدد فهو يعرف أن مجيء الجند من المدينة يقتضى زمنا قد يوائمه الفرس فيه .

وكان لا بد له من مواجهة الموقف بما عنده من جند ، وبما لديه من طاقات حتى يواجه النكبة بما عرف عنه من دقة القائد الصبور المحنك .

وأول خطوة اتخذها المشنى فى هذا المجال هى أنه بعث فيمن يليه من قبائل العرب فجاءته وفود عظيمة وتوافدت عليه جموع ضخمة بينهم نصارى بنى النمر الذين رأوا أن يقاتلوا مع قومهم ، وكان على رأسهم أنس بن هلال النمرى ، كما جاء عدد غفير من نصارى تغلب ، وعلى رأسهم عبد الله بن كليب الثعلبى المعروف بمردى الفهر ، وهكذا اجتمعت وفود النصارى مع اخوانهم العرب ليشاركوا معا فى معركة واحدة ضد عدو واحد للعرب ، رغبة فى اعلاء كلمة القومية وانتصار العرب مسلمين كانوا أو نصارى على أعدائهم .

وكانت الخطوة التالية للمشنى هى أنه نقل معسكره من أليس

الى مرج السباخ بين القادسية وخفان ليكون بذلك قريبا من تخوم العرب فيستطيع أن يلجأ اليهم اذا غلبه الفرس وأن يجد عندهم المدد اذا تم له النصر ..

وفي ذات الوقت كان عمر بن الخطاب يفكر في أمر القنات المرابطة في العراق .. كان يبحث أمر امدادها بحثا عميقا وسريعا حتى تستطيع هذه القنات أن تواجه الموقف الدقيق الذي يحيط بها ..

وكان العرب حتى هذه اللحظة يتوافدون على المدينة استجابة لدعوة عمر للخروج ولكنهم كانوا يتهيئون الخروج الى العراق ويفضلون الخروج الى بلاد الشام وبذل عمر جهدا كبيرا حتى استطاع أن يقنع الناس بالتوجه الى العراق بدلا من الشام ، وحدث أن اجتمع بنو بجيلة (١) فقال عمر لجرير بن عبد الله البجلي « أخرج حتى تلحق بالمشنى » ، فقال له جرير « بل الشام فان أسلافنا فيها » فقال له عمر « بل العراق فان الشام في كفاية » وعرض عمر على جرير وقومه الربع من خمس ما يفى الله على

(١) كان بنو بجيلة متفرقين مشتتين في قبائل العرب ، وطلب جرير من أبي بكر في خلافته أن يجمع بنى بجيلة فردّه أبو بكر وقال له « ترى شغلنا وما نحن فيه بغوث المسلمين ممن بازرائهم من الأسديين فارس والروم ثم أنت تكلفنى التشاغل بما لا يفنى عما هو أرضى الله ورسوله دعنى وسر نحو خالد بن الوليد حتى أنظر ما يحكم الله في هذين الوجهين » . ولما قضى أبو بكر وتولى عمر الخلافة من بعده أعاد جرير طلبه فكتب عمر الى عماله فجمعوا بنى بجيلة في صعيد واحد .

المسلمين يضاف الى نصيبهم من الفىء^(١) فقبل جرير وولاه عمر قيادة قومه وكانت عدتهم سبعمائة فارس .

وتبعتهم جموع كثيرة كانت مترددة أيضا اذ كانت تفضل الخروج الى الشام دون العراق فاجتمع بهم عمر وقال لهم « ذلك أمر قد كفيتموه فاستقبلوا جهاد قوم قد حووا فنون العيش لعل الله أن يورثكم قسطكم من ذلك فتعيشوا مع من عاش من الناس » فقال غالب بن عبد الله ، وعرفجة بن هرثمة مخاطبين قومهما « يا عشيرتاه أجييوا أمير المؤمنين الى ما يرى وأمعنوا له » ، فأجابوا وخرجوا مع الخارجين من بنى بجيلة .

وخرجت معهم أيضا جموع الفارين من غزوة الجسر ، فقد طلبوا أن يعودوا من جديد الى الميدان ليزيلوا عن أنفسهم وصمة الهزيمة في الجسر ..

وخرج أيضا بنو الأزد وعليهم عرفجة بن هرثمة ، وبنو كنانة وعليهم غالب بن عبد الله ، وبنو حنظلة وعليهم ربيعى ، وبنو ضبة وعليهم عصمة بن عبد الله الضبى ، وعدد كبير ممن ظهرت توبتهم من أهل الردة^(٢) ، وخلق كثير من مختلف القبائل ، وصحب الخارجون معهم نساءهم وأبناءهم .

(١) حدث داوود بن أبى هند قال : أخبرنى الشعبي أن عمر وجه جرير بن عبد الله الى الكوفة بعد قتل أبى عبيد أول من وجه وقال : هل لك فى العراق وأنفلك الثلث بعد الخمس ، قال : نعم .

(٢) كتب عمر الى أهل الردة من بنى عبد القيس وغيرها ممن لم يكن يسمح لهم بالجهاد أن يخرجوا الى العراق فسارت جموع كثيرة منهم .

والتقت هذه الجموع كلها مع قوات المشنى الذى ما ان علم بتجمعات الفرس وتحركاتهم اليه حتى بعث الى جرير بن عبد الله والى غيره من الأمراء قائلاً « انا جاءنا أمر لم نستطع معه المقام حتى تقدموا علينا فعجلوا اللحاق بنا وموعدكم البويب (١) .

موقف الفرس . . .

بلغت الفرس أنباء التجمعات الاسلامية وترامت اليهم أخبار الامداد التى تسيير تباعا الى العراق وهالتهم هذه الجموع التى أصبحت فى الجانب الاسلامى وأحسوا بخطورتها فعقد رستم اجتماعا مع الفيرزان واتفقا على تقسيم السلطة بينهما وجمعا معا جنبا عظيما كثيفا جعلاه عليه القائد مهران بن مهرباداز الهمداني وكلفاه بأن يتقدم بقواته الى مواقع المسلمين ، وأمداه بعدد من الفيلة ، وجدير بالذكر أن الملكة بوران وافقت على رأى الاثنين وباركنه .

ويهمنا أن نذكر أن مهران الهمداني قائد الفرس الجديد كان طموحا حريصا على أن يحرز ضد العرب نصرا ينسى الفرس النصر الذى أحرزه ذو الحاجب فى الجسر والذى كانوا يعيشون فى ذكراه وهو بذلك كان يريد أن يقفز الى مكان الصدارة بين قادة

(١) هو الموضع الذى بنيت فيه الكوفة بعدئذ .

الفرس وأن يسجل لنفسه صفحات بيضاء خالدة تفوق تلك الصفحات التي كتبها لنفسه ذو الحاجب .

وتقدم مهران بقواته وجموعه التي بلغ عددها اثني عشر ألفا حتى نزل بازاء المثنى من وراء الفرات في أرض تدعى بسوس قرب الكوفة ، وما ان علم المثنى بنزوله في هذا الموقع حتى قال « أكد مهران وهلك ونزل منزلا هو بسوس » .

الاعداد للمعركة ..

عندما أصبح العرب والفرس وجها لوجه لا يفضل بينهما سوى نهر الفرات بعث مهران الى المثنى يقول « اما أن تعبروا الينا واما أن نعبر اليكم » وتنبه المسلمون في هذه المرة الى خطورة العبور وعادت الى ذاكرتهم معركة الجسر حين أبي أبو عبيد الا أن يعبر الى الفرس ليؤكد شجاعته وقوته ، وأدرك المسلمون أن عبورهم كان من عوامل الهزيمة المرة التي وقعت بهم ، ولهذا فعندما بعث اليهم مهران بمثل ما بعث به من قبل ذو الحاجب كان ردهم واضحا صريحا « أعبروا الينا » .

ووافق مهران على أن يعبر بقواته ..

وعبرت قواته في ثلاث صفوف مع كل صف فيل ، وكان لها عند عبورها صوت وضوضاء فقال المثنى لجنده « أن هذا الذي تسمعون فئيل فالزموا الصمت وأتمروا همسا » وأعد المثنى قواته فجعل على مجنبيه بشير بن الخصاصة وبسر بن أبي رهم^(١)

(١) في بعض المراجع ذكر بشر .

وعلى مجردته (أى الخيل) أخاه المعنى ، وعلى الرجل (أى المشاة) أخاه مسعود ، وعلى الطلائع (أى المقدمة) النسير ، وعلى الردء أى (الاحتياط والعون) مذعورا ، وبقى هو فى القلب من جيشه .

وبعد أن تم الاعداد المادى للمعركة أخذ المثنى يعد رجاله معنويا فكان يتعهد الصفوف ويعد لها للمعركة ، وحدث أن رأى أحد رجاله يتقدم صفه مندفعاً نحو الفرس فقرعه بالرمح وقال له « لا أبالك ! الزم موقفك فاذا أتناك قرنك فأغنه عن صاحبك ولا تستقتل » .

وقد كان المثنى يتعهد صفوف المسلمين ويمر بينهم على فرسه الشمس (١) ويحضهم (٢) فيقول لهم « أنى لأرجو أن لا تؤتى العرب اليوم قبلكم والله ما يسرنى اليوم لنفسى شئ الا وهو يسرنى لعامتكم » فيجيبونه بمثل ذلك .

وظل المثنى يذكر جنوده بالحروب والوقائع الماضية والغزوات السالفة ، ويعرفهم بمواقع الشجعان ومصارع الفرسان ، وما وعد الله للشهداء المجاهدين من ثواب فى دار النعيم ، وبالرغم من أنه كان جريحا فانه كان يمر بالقوات باذلا الجهد غير آبه بحياته ولا عابىء بجراحه ينشط الهمم ويقوى العزائم ويشد نفوس أهل الحرب ويحرض المؤمنين على القتال .

(١) دعى الشمس للين عريكته وطهاراته ، وكان لا يركبه الا اذا قاتل ، فاذا فرغ من القتال ودعه .
(٢) أى يحضهم .

وكان المثني صاحب منزلة طيبة عند رجاله فقد كانوا يحبونه
ويحترمونه ويجلون فيه قوته وبطولته وشفقه وعلو منزلته .

القتال . . .

كان وقت بدء المعركة في شهر رمضان ، فأمر المثني جيشه
بالإفطار ليقووا على عدوهم وحتى لا يؤثر الصيام على قدراتهم
في القتال ، فنادى المسلمين « أيها الناس أنكم صوام والصوم مرقة
ومضعفة ، وأنى أرى من الرأى أن تفتروا فتقووا بالطعام على
عدوكم » ، ورأى الناس جميعا رأيه فأجابوه الى ما طلب
وأفطروا .

حدد المثني ساعة الضفر مع رجاله واتفق معهم على أن تكون
عندما يكبر للمرة الرابعة « أنى مكبر ثلاثا فتهيأوا ثم أحملوا مع
الرابعة » ، وعندما حان ميعاد الهجوم كبر المثني وكبر من بعده
المسلمون وأدرك الفرس أن العرب على وشك الهجوم فقرروا
أن تكون المبادأة في جانبهم ، ولهذا رأوا أن يبدءوا هم بالهجوم ،
وما أن صاح المثني للمرة الرابعة « الله أكبر » ، حتى عاجلهم
الفرس وهاجموا صفوف المسلمين وخالطوهم والتجهم القتال .

ولم ينس المثني واجبه كقائد خلال المعركة فقد كان يشرف
على سيرها وتطوراتها ويراقب صفوف المسلمين ويمر بينهم ويشير
حماسهم ، وينظم ما اختل من نظامهم ، فكان اذا ما رأى خلا في
احدى الجبهات يرسل لأهل هذه الجبهة رجلا من عنده يقول
لهم عن لسانه « ان الأمير يقرئكم السلام ويقول لكم لا تفضحوا

المسلمين اليوم» فيقولون « نعم » (١) ، ويعتدلون ، وكان المثني اذا نظر موطن ضعف من الفرس قابلا للعطب وجهه اليه ضربة قاضية .

وطال الاشتباك وازداد عنفا ورأى المثني أن يضرب ضربة قاصمة فنظر الى نفر من التغليبين نصارى وفيهم جلاب خيل قدموا مع أنس بن هلال النمري وقال لأنس « يا أنس انك امرؤ عربى ، وان لم تكن على ديننا فاذا رأيتنى قد حملت على مهران فاحمل معى » ، فأجابه أنس الى ذلك وقال المثني مثل ذلك أيضا لأبى مردى الفهر فأجابه اليه وحمل المثني على الفرس وحمل معه أنس بن هلال ومردى الفهر وهاجموا مهران ودخل المثني فى ميمنته (٢) فاضطربت صفوف الأعاجم والتقى خلال هذا الاضطراب الذى سيطر على الفرس فى أرض المعركة غلام نصرانى من تغلب بمهران فأثارته العصبية فقتله ، ثم استوى على فرسه وهو يقول :
أنا الغلام التغلبى أنا قتلت مهران (٣)

وعلم الفرس بمقتل قائدهم مهران فتضعضوا وانهمزوا وأدرك المثني أن الفرس سيذهبون الى الجسر للعبور الى الضفة الأخرى للنهر هربا من هجمات المسلمين فأسرع الى هناك وقطعه ومنع

(١) ذكرت بعض المراجع أنه رأى خلافا فى صفوف بنى عجل فبعث اليهم من قال قوله الذى ذكرناه .
(٢) قالت بعض المراجع أنه اندفع بفرسه الشموس ورمحه بين أذنيها وقصد مهران حتى أزاله ودخل ميمنته .
(٣) فى رواية أخرى ...
أنا الغلام التغلبى ... أنا قتلت المرزبان

ذلك مرورهم من فوقه (١) والسيوف تأخذهم من كل جانب والمسلمون يحيطون بهم والمثنى وسطهم يدعوهم للقتال ويحميهم ويقول لهم « عاداتكم من أمثالكم انصروا الله ينصركم » ، وقد بلغ جماس المسلمين ، واستطاعوا أن يحرزوا نصرا عظيما في هذه المعركة كما استطاعوا أن يمحووا ذكرى الهزيمة المرة التي لحقت بهم من قبل في الجسر .

وحدث عند اشتداد القتال أن جرح مسعود أخو المثنى فتضعض من معه فقال وهو يتلوى من ألم الضربة « يا معشر بكر بن وائل ارفعوا راياتكم رفعكم الله ولا يهولنكم مصرعى » ، وكان قبل أن يصاب قد قال لهم « ان رأيتمونا أصبنا فلا تدعوا ما أتمت فيه فان الجيش ينكشف ثم ينصرف .. الزموا مصافكم واغنوا غناء من يليكم » .

ولما مات مسعود وبلغ المثنى قتل أخيه صاح في الناس « يا معشر المسلمين لا يرعكم مصرع أخى فان مصارع خياركم هكذا » ، ووقعت كلماته موقعا حسنا في قلوب المقاتلين وشدت من معنوياتهم وحرصتهم على عدوهم فحملوا حملة رجل واحد

(١) حدث أن الفرس الذين ارتدوا عن الجسر أخذوا يقتلون من المسلمين ويستमितون يريدون الشار منهم فمات كثير من المسلمين ، فأغضب ذلك المثنى وندم لقطعه الجسر ولمعه الفرس من العبور وقال لقومه في ذلك « لقد عجزت عجرة وقى الله شرها بمسابقتى إياهم الى الجسر حتى أخرجتهم فأنى غير عائد فلا تعودوا ولا تقندوا بى أيها الناس ، فأنها كانت منى زلة لا ينبغي أخراج أحد الا من يقوى على امتناع » .

وصدقوا الله في القتال حتى سمي يوم البويب يوم الاعشار لأنهم أحصوا مائة رجل من العرب قتل كل واحد منهم عشرة من الفرس في المعركة وقيل أن عدد القتلى من الفرس بلغ مائة ألف ، وبقيت جثثهم صرعى طريحة في الميدان حتى بليت وصارت عظاما ثم بقيت دهرا طويلا لم تدفن الا بعد بناء الكوفة ثم عفا عليهم التراب أزمان الفتنة وقيل ان أهل تلك الناحية كانوا يأتون البويب فيرون فيما بين موضع أسكون وبنى سليم عظاما أيضا تلولا تلوح من هامهم وأوصالهم يعثر بها (١) ، واستشهد في هذه المعركة من المسلمين خالد بن هلال ومسعود بن حارثة أخو المثنى وغيرهم من أبطال المسلمين فصلى عليهم المثنى وقال « انه ليهون على وجدى أن شهدوا البويب أقدموا وصبروا ، ولم يجزعوا ولم ينكلوا » .

بعد المعركة . . .

بعد أن فر الفرس من المعركة انتدب المثنى جرير بن عبد الله البجلي لعبور الفرات ولتتبع الفارين وانتدب معه من شهدوا واقعة الجسر ، لأنهم كانوا أشد الناس بلاء في هذه المعركة لاستيائهم من الفرار في تلك الموقعة فغنم هؤلاء مغائم كثيرة وعادوا الى مواقعهم .

وبعد أن انتهى المثنى من هذه الغزوة فرق جنده في السواد وأخذ يستخضع البلاد التي عصت من قبل وكانت له وقائع كثيرة .

(١) تجارب الأمم لابن مسكويه ج ١ ص ٣٤٤ .

مع العرب ظفر منها المسلمون بما شاءوا من متاع ومال وبلغت غاراتهم شرقا الى قرب مدائن فارس وشمالا الى الجزيرة فأوقعوا الرعب فى قلوب الأعداء ، واضطرب أمر الفرس لذلك واختل وبعث القواد والرؤساء من المسلمين الى المثنى « ان الله سلم ووجه لنا ما رأيت ، وليس دون القوم شيء فتأذن لنا فى الاقدام » ، فأذن لهم المثنى فانطلقوا فى السواد حتى بلغوا سباط وجيوش الفرس تفر أمامهم فرار النعام ، وانطلق المثنى بدوره فغزا الخنافس والأبناز وغنم منها الكثير ثم بلغ المسلمون دجلة وأغاروا على قرية بغداد وتكرت ..

وأخيرا استقر المثنى فى الحيرة بعد ان استتب له الأمر وفى هذا يقول الطبرى « لما أهلك الله مهران استمكن المسلمون من الغارة على السواد فيما بينهم وبين دجلة فمخروها لا يخافون كيدا ولا يلقون فيها مانعا » .

منطق البطل ..

بعد أن انتهت معركة البويب اجتمع المسلمون بعد فراغهم منها مغتبطين يتسامرون فقال المثنى « قاتلت العرب والعجم فى الجاهلية والاسلام ، والله لمائة من العجم فى الجاهلية كانوا أشد علىّ من ألف من العرب ولمائة من العرب اليوم أشد علىّ من ألف من العجم .. ان الله أذهب بأسهم ووهن كيدهم فلا يروعنكم زهاء ترونه ولا سواد ولا قسى فج ولا نبال طوال فانهم اذا أعجلوا عنها أو فقدوها كالبهائم أينما وجهتموها اتجهت » .

شعر المعركة . .

شهد الناس للمثنى بالبراعة والشجاعة والقيادة والبسالة
والحنكة والقدرة ، وتغنى بهذه الصفات كلها الشعراء ومجدوا
أفعاله ، وعظموه فيما نظموه ، ومن ذلك ما أنشده عروة بن زيد
الخيلى (١) ...

هاجت لعروة دار الحى أحزاننا
واستبدلت بعد عبد القيس همدانا
وقد أرانا بها والشمل مجتمع
اذ بالخيلى (٢) قتلى جند مهرانا
أيام سار المثنى بالجنود لهم
فقتل القوم من رجل وركبانا
سما لأجناد مهرا ن وشيعته
حتى أبادهم مثنى ووحداننا
ما ان رأينا أميرا بالعراق مضى
مثل المثنى الذى من آل شياننا
ان المثنى الأمير القرم لا كذب
فى الحرب أشجع من ليث بخفاننا

(١) هو عروة بن زيد الخيل الطائى صحابى مشهور شهيد مع
أبيه فى الجاهلية بعض الحروب وعاش الى خلافة الامام على وشهد
معه صفين .

(٢) مكان قرب البويب .

النساء في المعركة ..

قلنا ان المشى أصاب في البويب مغانم كثيرة .. غنما ودقيقا
وبقرا .. فبعث بها الى عيالات من قدم من المدينة وقد خلفوهن
بالقوادس وعلى تخوم شبه الجزيرة وبالحيرة .

وكان دليل من ذهب بنصيب العيالات بالقوادس عمرو
ابن عبد المسيح بن ببيعة فلما رأت النسوة اقبال الخيل عليهن
تصايحن وحسبنا غارة عليهن فقمن ومعهن الصبيان بالحجارة
والعمد ، فانشرح صدر عمرو لهذا التصرف من جانب النسوة
وقال « هكذا ينبغي لنساء هذا الجيش » .

واستأمن الرجال النساء وبشروهن بالفتح وقدموا لهن
ما حملوه اليهن وقالوا « هذا أول المغنم » .

وكان النسير على الخيل التي أتتهم فأقام في خيله حامية لهم .
ولنا هنا وقفة فلو لم يكن لجيش المسلمين ثقة بشجاعة نساءهم
وامكان دفعهن العدو المفاجيء لما تركوهن في الفلاة بلا حامية
وتقدموا هم لحرب الفرس .. وموقف النساء موقف بطولى
تاريخى .. فنساء المسلمين كن يقاسمن الرجال في ميدان الحرب
ويساعدن قدر استطاعتهن ، ومن أهم ما كن يقمن به من أعمال ...

١ — يضمندن الجراح ويمرضن المرضى ويعالجن الجرحى .

٢ — يساعدن على رفع الروح المعنوية للمقاتلين ويشجعن
المحاربين بالزغاريد والأناشيد .

٣ — يقمن بوظائف الشؤون الادارية .. يحضرن الماء
ويقدمن الطعام .

٤ — يثرن حمية الرجال للدفاع عن الأعراس وللغيرة على الحرم .

وبرغم هذا فقد تطور دورهن في المعركة وخرج عن هذه الحدود .. أصبحن يحملن السلاح ويخضن المعركة ويحاربن بجانب الرجال ويقاسمن المحاربين شرف الجهاد والاستشهاد .

ولم يكن حجاب المرأة المسلمة مانعا لها من مخالطة الرجال فقد كن يتميزن بالعفة وسلامة الأخلاق وطهارة النفس وحسن التربية وغيرها من الصفات التي كانت تقوم مقام الحجاب تماما ، ولهذا خرجت المرأة المسلمة من بيتها تصاحب رجلها في جهاده ونضاله وتعاونه معاونة صادقة خالصة لوجه الله والدين ووقفت بجانبه تشد من أزره وتساعده قدر استطاعتها وتسهل له سبل النصر وتمهد له طريق الفوز ... وقد أشار الى ذلك ادوارد جييون في قوله « ان النساء اللاتي تعودن الضرب بالسيف والطنن بالرمح والرمى بالنبل هن اللاتي اذا وقعت احداهن في الأسر تكون قادرة على حفظ عفتها ودينها من أى انسان .. » .

ولنساء المسلمين تاريخ طويل مجيد في ميادين القتال فقد ذكر الطبرى وابن الأثير الدور الكبير الذى قامت به أروى بنت الحارث ابن كلدة ^(١) عند فتح ميسان وأشار ادوارد جييون في كتابه

(١) سار المغيرة الى أهل ميسان وعلمت بمسيرة أروى بنت الحارث بن كلدة طبيب العرب المشهور فعرضت على نساء المسلمين أن يلحقن بالمسلمين فيكن لهم عونا وعقدت لواء من خمارها واتخذت النساء من خمورهن رايات وخرجن يردن المسلمين =

« تاريخ الامبراطورية الشرقية » الى شجاعة النساء المسلمات
التي أظهرنها في حصار دمشق .

وتاريخ الحروب الاسلامية حافل ببطولة النساء المسلمات
اللاتي حملن السلاح وخضن المعارك وشاركن الرجال وأتبن في
الميدان بأعظم الأعمال شأنهن في ذلك شأن أعظم الرجال .

= فانتبهن اليهم وهم يخوضون المعركة فلما رأى العدو رايات
مقبلة ظن أن مددا أتى المسلمين ففروا من ميدان المعركة وتبعهم
المسلمون وطاردهم وقتلوا منهم عددا كبيرا .

الباب الخامس

غارات لثني

خنافس... بغداد... صفيين

صبحنا بالخنافس جمع بكر
وحيا من قضاة غير ميل
نسفنا سوقهم والخيل رود
من التطواف والشر البخيل

الخنابس

اعادة تنظيم القوات ...

قلنا ان المشنى بعد انتصاره العظيم فى موقعة البويب بعث بجنده يحتلون النقط العسكرية الهامة التى يستطيع أن يرتكز عليها فى أية عملية مقبلة ، ثم فرق جيشه فى السواد وأمر جنده باخضاع جميع العرب القاطنين فى السواد لسلطة المسلمين وأخذت فرقه تستخضع البلاد التى عصت من قبل .

أرسل جرير بن عبد الله البجلي الى منطقة ميسان وهى منطقة واسعة كثيرة القرى والنخل .

وأرسل هلال بن علفة الى دستميسان وهى منطقة مجاورة لمنطقة ميسان وتقع ضمن حدودها مدينة البصرة ومدينة الأبله . وأرسل تعزيزات لمواقعه ومراكزه العسكرية ونقطة الاستراتيجية بقيادة عصمة بن عبد الله الضبى ، وعرفجة بن هرثمة البارقى ، والكلح الضبى وهو من فرسان العرب وكان المشنى قد أسند اليه حماية الجسر .

وكلف المشنى قواته الخفيفة الحركة (الخيالة) بالقيام بعمليات استطلاع بعيدة المدى بقصد جمع الأخبار عن الفرس .. مواقعهم .. مرافقهم .. قواعدهم .. ذخيرتهم .. الميرة .. استعداداتهم .. حالتهم الداخلية .. وبناء على المعلومات التى كانت

تصل اليه كان ينظم غاراته المفاجئة المباغتة ويخرج من هذه الغارات بمغانم كثيرة فوق تربيته لأقدام جيشه في المناطق التي كان يقوم بالاغارة عليها .

•• سوق الخنافس ••

ترك المثني بشير بن الخصاصية بالحيرة ، وتوجه الى أليس وهي قرية من قرى الأنبار ، وهناك جاءه رجلان أحدهما أنباري والآخر حيرى ، ودله الأنباري على سوق الخنافس ، ودله الحيرى على سوق بغداد .

وبحث المثني الموقف ، ودرس العرضين اللذين قدمهما الأنباري والحيرى فرأى أن سوق الخنافس أقرب اليه من سوق بغداد ، وأنه من السهل عليه أن يصل الى هذه السوق في فترة وجيزة وبسرعة مما يحقق المفاجأة .

وسوق الخنافس هي سوق يتوافد اليها تجار كثيرون من جميع أنحاء السواد والعراق ..

وقرر المثني أن يهاجم السوق وانتظر موعده فلما قرب يومه أعد العدة للاغارة عليها .. وفي يوم السوق فاجأ المثني الموجودين بها واستولى على ما بها ثم عاد الى مركز رياسته وهو ينشد ..

صبحنا بالخنافس جمع بكر
بفتيان الوغى من كل حي
وحيا من قضاة غير ميل
تبارى في الحوادث كل جيل
نسفنا سوقهم والخيل رود
من التطواف والشر البخيل

غارَات أُخْرَى ...

وبعد أن انتهى المثني من غاراته على سوق الخنافس ، شن غارات أخرى على الأنبار وبادوريا (١) ، وقطربل (٢) ، وغنم المثني من هذه الغارات مغانم كثيرة حتى أن كثيرا من شعراء العرب تغنوا بهذه الغارات ، ومنهم من قال ...

وللمثني بالعمال معركة شاهدها من قبيلة بشر
كتيبة أفرغت بوقعتها كسرى وكاد الايوان ينفطر
وشجع المسلمون اذ حذروا وفي ضروب التجارب الحذر
سهل نهج السبيل فاقتنروا آثاره والأمور تقتنر (٣)

سوق بغداد ...

كانت سوق بغداد سوقا كبيرة تقام كل سنة ، فيأتى إليها التجار من داخل أراضي العراق ومن أرض السواد ومن مختلف البلاد والنواحي وتجتمع بها أموال كثيرة لا حصر لها حتى أن بعض المراجع أجمعت على أن أموال السوق تقدر بأموال بيت المال .

وقد يتبادر الى الذهن أن المثني قد أراد بهذه الغارات الاستيلاء على الأموال لنفسه ، ولكن الواقع أنه أراد أن يأخذ

(١) ذكرت في بعض المراجع بادروريا .
وذكرت ياقوت الحموي أنها تقع في الجانب الغربي من بغداد ضمن منطقة نهر عيسى بن علي ، وتصل بعض مباني بغداد الى طرفها .
(٢) هي قرية تقع بين بغداد وعطبرة .
(٣) أي تقنى .

المسلمون هذه الأموال وهي أموال أعدائهم فيضربون بذلك عصفورين بحجر واحد ، يحرمون أعداءهم من المال الذي هو الأساس الأول في اعداد الجيوش وتسليحها ويستفيدون هم بهذا المال في الاعداد لمحاربة أعدائهم والقضاء عليهم .

وقرر المشنى أن تكون غارته على سوق بغداد مفاجأة لهؤلاء الذين يتوافدون عليه حتى تكون غارته ذات فائدة كبيرة ، فخرج من مكان قرب البويب يطلق عليه اسم النخيلة ، وكان معه أدلاء من أهل الحيرة يدلونه على الطريق ، فوصل في الليل الى الأنبار ، وكان عليها رجل فارسى يدعى شفروخ هو مرزبانها فبعث اليه المشنى يطلب منه أن يأتى اليه ، وكان الرجل قد سمع عن المشنى وبطولته في الحرب وشدته في القتال ، فخاف أن يذهب اليه ، الا أن المشنى أعاد دعوته وأمنه فجاء اليه .

وفوجيء المشنى وهو يعبر النهر بالجرس مقطوعا ، وقامت بذلك أمامه مشكلة كبيرة اذ كيف يجتاز النهر ليصل الى بغداد ؟ ولم يكن أمامه من سبيل سوى أن يساعده المرزبان شفروخ في الوصول الى غايته وتحقيق أمنيته ، ولم يشأ المشنى أن يعرف الناس حقيقة اتجاهه ، فأخفى خطواته التالية ، ولم يشر فى أى حديث له الى أنه ينوى مهاجمة بغداد ، واجتمع بالمرزبان وقال له « انى أريد أن أعبر على المدائن وأريد أن ترسل معى الأدلاء وتعقد لى الجسر لأعبر عليه الفرات الى المدائن » .

واقنع مرزبان الأنبار بما قاله المشنى فجمع له الأدلاء وأمر لهم بعلق وطعام وعقد لهم الجسر فعبروا .

وتقدم القوم على الطريق وعلم المثني أنه قد أصبح على بعد أربعة فراسخ أو خمسة من بغداد إذ سأل الدليل « كم بيننا وبين بغداد ؟ » فأجاب « أربعة أو خمسة فراسخ ، وقد بقي عليك ليل » .

وكان لابد للمثني من المحافظة على غرضه وهو سوق بغداد فلما علم أنه قد أصبح قريبا منها وضع خطة التحرك اليها ، وهو كما أشرنا كان يضع خطته على أساس المفاجأة التامة ، ولهذا أمر أصحابه بالنزول ، وأقام معسكرا على الطريق ، ثم عين حرسا من بعض رجاله يتناوب حماية المعسكر ليلا وسمح لباقي قواته بالراحة والنوم .

وضاانا للسرية ومحافظة على تحقيق المفاجأة ، عين بعض رجاله من الفرسان ليقوموا بأعمال الدوريات حول معسكره ، والى مسافة بعيدة منه ، وأمرهم بالقاء القبض على كل فرد يقترب من المعسكر أو يحوم حوله أو يشك فيه وبذلك يكون قد اتخذ الخطوات الايجابية الفعالة لمنع أخباره عن أهل السوق وهو بذلك أيضا يكون قد قطع كل سبيل الى وصول أنبائه الى هناك .

وفي آخر الليل أنهض المثني رجاله وأمرهم بالاستعداد وسمح لهم بتناول طعامهم وبالوضوء وباعداد الخيل فيعلفونها ويسقونها حتى تكون هي الأخرى على استعداد تام للمهمة الكبيرة التي تنتظرهم في سوق بغداد ، واستيقظ الناس ، وعلفوا الخيل وجمعوا السلاح ثم حزموا خيلهم .

ولما تم الاستعداد للتحرك أمر قواته بالتحرك ليلا قبل طلوع الفجر .. أى أن المشنى بدأ زحفه على سوق بغداد قبل أول ضوء على حد تعبير العسكريين اليوم .

وتقدمت القوات نحو بغداد ووصلت قبل بزوغ الشمس ، وبدأت هجومها ووضعت السيوف فى الأهالى وكان للمفاجأة أثر كبير فارتاع الناس واضطربوا وفروا تاركين أموالهم وتجارتهم غنيمة فى أيدي رجال المشنى .

وقدر المشنى موقفه فى سرعة فأصدر أوامره الى الجند بحمل الذهب والفضة والحريز وما كان خفيفا وزنه غالبا ثمنه .

وتحقق الفوز الذى كان ينشده المشنى فى سوق بغداد .
وبدأت قواته تعود أدراجها حتى أصبحت قريبة من الأنبار فنزلت بنهر السيلحين ، وعسكرت هناك .

وبينما المشنى يمر بقواته سمع همسا بين القوم يقول « ما أسرع القوم فى طلبنا ؟ » وتنبه وهو القائد المحنك الى المعنى الذى يخفى وراء هذا الهمس ، وأدرك خطورة القلق الذى تسرب الى قلوب رجاله ، وأحس أنهم قد بدءوا يخافون ويتزعزعون ، وكان لابد من أن يعمل شيئا يعيد به معنوياتهم ويشد من عزائمهم ويثير حماسهم ، فدعا اليه الجند وتحدث اليهم فقال « أيها الناس احمداوا الله وتناجوا بالبر والتقوى ولا تناجوا بالاثم والعدوان .. انظروا فى الأمور وقدروها ثم تكلموا ، انه لم يبلغ النذير مدينتهم بعد ، ولو بلغهم لحال الرعب بينهم وبين طلبكم .. ان للغارات روعات تنتشر عليها يوما الى الليل ولو طلبكم المحامون من رأى العين

ما أدركوكم وأنتم على الجياد العراب وهم على المقاريف (١)
البطاء حتى تنتهوا الى عسكريكم وجماعتكم ، ولو أدركوكم
لقاتلتهم لاثنتين .. التماس الأجر ورجاء النصر ، فثقوا بالله
وأحسنوا الظن فقد نصركم الله عليهم في مواطن كثيرة وهم أكثر
منكم وأعز » .

هذه الخطبة توضح لنا اتجاهها هاما في حياة المشى العسكرية
وتشير الى صفات ومميزات يتميز بها عن غيره من قادة أعدائه
فبدراسة هذه الخطبة نجد أن المشى ..

١ — يتجه بمشاعره واحساساته الى الله ، وهذا الاتجاه
يصور لنا مدى ايمانه بربه وبرسوله وبكتابه وهو
ينقل هذه المشاعر والاحساسات الى جنده ويدعوهم
الى ذكر الله والى حمده ، كما يدعوهم الى الثقة
الكاملة في الله لأنه لأنه أيدهم بنصره في معارك كثيرة
كانوا هم فيها أقل عددا وأقل عدة .

٢ — يدعو جنده الى عدم الاندفاع وراء الشائعات ،
ويطلب منهم أن يترثوا ويتبينوا ويقدرُوا الأمور
حتى لا يكون تسرعهم من عوامل فشلهم وهو بدعوته
هذه يصور لهم خطورة الاشاعات وخطورة الحديث
الخافت الذى يرمى الى الهدم لا الى البناء .

(١) جمع مقرف أى الخيل غير الأصيلة .

٣ — يصور لجنده حالة عدوهم وقد انتشر الرعب والفرع بينهم ويؤكد أن العدو قد أصبح في حالة ذعر لا تسمح له بأن يسعى الى طلبهم وهو بذلك يحدث جنده عن معنويات العدو ويؤكد لهم أن الحظاظ هذه المعنويات تضعف الرغبة في القتال وتفل العزيمة وتقلل الحماس وتهن القوى ، وهذا هو الحال لعدوهم بعد أن انتصروا عليه انتصارات ساحقة وبعد أن أوقعوا به هزائم متتالية فهو أصبح في حالة لا تسمح له بطلبهم .

٤ — يثير في جنده الثقة بالنفس وبالسلاح ، فهو يقول لهم ان خيل العرب تفوق خيل الأعداء لأنها أصيلة نشأت على التربية العربية التي تتولاها بالتدريب والتعليم فتكر وتقر في براعة وفي فن يفوق فن الفرس في هذا المجال ، هذا فوق أن جياذ الفرس ضعيفة بطيئة في جريها لا يعتمد عليها في الوصول الى الأهداف بالسرعة المطلوبة .

٥ — يثير في جنده الهمة والشجاعة والحماس ، ويؤكد لهم أن لقاء العدو بهم لن يمس مبادئهم وشجاعتهم وقوتهم لأنهم يقاتلون في سبيل أمرين وهم يشدون في قتالهم احدى الحسينيين ، فاما نصر ساحق عظيم واما استشهاد عزيز كريم ، والعربي المسلم حين يسمع حديث النصر ، أو حديث الاستشهاد ينسى كل شيء له ، ويبعد عنه

الخوف ويهجره اليأس ويعيش حياته قوى النفس
عظيم الهمة ، وهو مدرك أن الله تبارك وتعالى سيصدق
سعه وعده ويحقق له النصر الأكيد .

وعاد الى جنود المثنى بعد استماعهم الى خطبة قائدهم وبعد
أن فهموا معناها ومرماها .. هذووهم وثباتهم فقد كانت كلماته
يردا وسلاما عليهم فلفظوا الأفكار التي كانت قد سيطرت عليهم
وبدءوا يعيشون من جديد في ذكرى انتصاراتهم وفي الأمل الكبير
الذي يداعب خيالهم بسحق الفرس وازالة دولتهم ورفع راية
الاسلام فوق بلادهم .

تقدمت قوات المثنى الى الأنبار حيث استقبلها حاكمها استقبالا
حسنا ثم عاد المثنى بعد ذلك بقواته الى مركز رياسته في النخيلة .

صفيين ...

بعث المثنى فرات بن حيان وعتبة بن النهاس للاغارة على
أحياء من تغلب والنمر في صفيين .

وعندما علم أهل صفيين عبروا الفرات وتحصنوا في الجزيرة
ورأى المثنى أن يلحق بقواته وأن يكون على رأسها ولكنه تعرض
لمشكلة ادارية هامة ولولا أنه رجل حرب لما استطاع أن يحل
المشكلة وأن يجتاز الأزمة وأن يتغلب على ما تعرض له من أخطار .
فبينما المثنى ورجاله يجتازون منطقة صحراوية لا تملك امداده
بزاد أو طعام نفذ كل ما يحمله من زاد وتجمست أمامه مشكلة
ادارية خطيرة .. اذ كيف يقوى جنده على المسير وكيف تقوى خيله

على التحرك ولا زاد عنده ولا ماء ، ولا سبيل أمامه الى تموينها
وامدادها بما يلزمها ؟ .

ماذا اذن يفعل المثني ؟ ..

اتجه الى رواجه فجمع منها ما يمكنه الاستغناء عنه ، ثم عاش
هو ورجاله على لجومها وأخفافها وبذل جهدا كبيرا حتى يمكن
هذه الرواحل أن تكفي احتياجاتهم أطول فترة ممكنة .

هذه المشكلة واجهت من قبل خالد بن الوليد حين تحرك من
العراق الى الشام ، وكان الطريق شاقا وحذره منه الأدلاء حتى
أن رافع بن عمير قال له « انك لن تطيق ذلك بالخيل والأثقال ،
والله ان الراكب المفرد ليخافها على نفسه وما يسلكها الا مغرور ،
انها لخمس ليال جياذ لا يصاب فيها ماء » وقال خالد لجنده وقد
أحسوا بخطورة المرحلة القادمة « لا يختلفن هديكم ولا يضعفن
يقينكم واعلموا أن المعونة تأتي على قدر النية والأجر على قدر
الحسبة ، وأن المسلم لا ينبغي له أن يكثر بشيء يقع فيه مع
معونة الله » ، وكان خالد خلال تحركه اذا نزل منزلا اقتطع أربعا
من الجزور وأخذ ما في أكراشها فيسقى الخيل ثم يشرب الناس
واستطاع خالد أن يعبر الطريق بما فيه من مخاطر وعقبات .

وكذلك فعل المثني .. وبينما هو يجتاز هذه المحنة جاءه فضل الله
ومعوثته اذ مرت به قافلة من أهل مدينة دبا (١) ، ومدينة حوران (٢)

(١) دبا مدينة قديمة مشهورة بعمان وكان فيها سوق
للعرب .
(٢) منطقة من اعمال دمشق ذات زرع كثير .

فأمر بمهاجمتها ، وأسر رجاله ثلاثة من بنى تغلب وقتلوا باقى أفراد القافلة ثم وضعوا أيديهم على ما فى القافلة من خير وطعام .

الاغارة على تغلب ..

لم تكد هذه المحنة تمر وتنقضى حتى تعرض المثنى لمحنة أخرى .. فقد ضل طريقه وكان الوقت ظهرا والحرارة على أشدها ، وكان لابد من تصرف سريع عاجل والا ضاعت الحملة كلها ، وتبته المثنى الى وجود الأسرى معه فاتجه اليهم وطلب منهم أن يكونوا أدلاءه ، وأن يقودوا رجاله الى الطريق الصحيح ، ورأى منهم مكرًا ودهاء فهدهم بالقتل ان لم يستجيبوا اليه ، فاستجاب اليه أحدهم وطلب منه أن يؤمنه على أهله وماله وقال له « أدلكم على حى من تغلب غدوت من عندهم اليوم » ، وأمنه المثنى وسار معه حتى وصل مع بداية الليل الى مواقع جلس فيها أصحابها مطمئنين ومن حولهم الماء والرواحل فأمر المثنى رجاله بالقيام بهجوم عاجل سريع عليهم وفوجيء القوم بالهجوم وسقط فى أيديهم ، ولم يعد أمامهم سوى التسليم . وغنم المثنى منهم غنائم كثيرة .

تكريت ...

علم المثنى أن جماعة من تغلب تتجمع على دجلة مع قوم من تكريت ، فقرر القضاء عليهم . وأعد عدته وجهاز قواته ، فجعل حذيفة ابن محسن على المقدمة ، والنعمان بن عوف ومطر الشيبانى على مجبتيه ، وتقدمت قواته الى القوم وأدركنهم عند تكريت ، ورأى

المثنى أن يشارك جنده في المعركة فأسرع يلحق بهم ووصلهم قبل
الاشتباك وشاركهم في القتال ، وبدأ معهم الهجوم فأصاب القوم
ووضع أيديه على غنائم كثيرة حتى قيل ان الرجل الواحد أصاب
خمسا من السبي وخمس المال .
وبعد أن انتهت هذه الغارة عاد المثنى بقواته الى الانبار .

نتائج هذه الغارات . . .

كانت لهذه الغارات نتائج هامة بالنسبة للمسلمين وبالنسبة
للفرس ، وأولى هذه النتائج أن المنطقة كلها قد أصبحت تحت
سلطان المسلمين وفي أيديهم فقد اتسع نطاق الأرض التي يسيطر
عليها المسلمون وأصبحت جموعهم قريبة من مواقع الفرس في
انتظار اللحظات الحاسمة التي سيتقرر فيها مصير الفرس والتي
ستؤدي بحكمهم الى الزوال والانهار .

وكان الفرس ينظرون الى هذا التوسع بخوف وقلق
واضطراب ، فقد أحسوا بعد هزائمهم المتكررة بأن حياتهم قد
قاربت النهاية وان سلطانهم في طريقه الى الزوال وان النصر العربي
يعلو يوما بعد يوم وان استقرار العرب فوق أرضهم قد أصبح
أمرا منتهايا مؤكدا وان ما رآه القائد رستم من نهاية دولة الفرس
قد أصبح وشيك الوقوع .

ولقد خيل للفرس أن هؤلاء الغزاة من العرب سيدخلون
عليهم عاصمة بلادهم ويفضون كل حصونهم ومسالحهم ويخضعون
أبناء كسرى لسلطانهم حتى أنهم صاروا يرددون « فما بعد بغداد
وساباط وتكريت الا المدائن » .

ومن نتائج هذه الغارات أن المسلمين عاشوا هذه الفترة في عمل متواصل دون ركود حتى لا يغرمهم النصر الذي أحرزوه فيقعوا عن طلبه ، وكان المشنى حكيما حين أراد أن يشغل جنده بهذه الغارات حتى يحين الوقت الذي يخوضون فيه المعارك الحاسمة ضد الفرس ، ولولا أن المشنى استطاع أن يقضى على اضطرابهم وقلقهم بعد الغارة على سوق بغداد لاستفحل الأمر ولاهتزت معنوياتهم ولأضعف ذلك روح القتال عندهم ، ولا شك في أن هذه الغارات قد جذدت عندهم الرغبة في القتال كما أن انتصاراتهم المتكررة في هذه الغارات قد أحييت عندهم الأمل في القضاء نهائيا على دولة الفرس ، ولعل هذه الغارات تكون من العوامل الكبيرة التي سهلت أمر انتصارهم في القادسية لأنها تكون قد حشدت عندهم الطاقات والامكانيات والدوافع والرغبة في الحصول على النصر وتحقيق أهداف الخليفة في أرض العراق .

ومن نتائج هذه الغارات أن المسلمين غنموا مغنم كثيرة خسرها الجانب الآخر ، فقد انتقلت ثروة فارس الى أيدي العرب ، وبعث القائد العربي الى المدينة بنصيب بيت المال من هذه المغنم حتى امتلأت بها جوانب المسجد واضطر الخليفة عمر الى اقامة حراسة عليها كلف بها اثنين من المسلمين الأشداء هما عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن الأرقم .. فقد بعث المشنى الى المدينة بما لا يكاد يقع تحت حصر ، فلما وقع عليه نظر الخليفة رأى شيئا لم تر عيناه

مثله من الجواهر واللؤلؤ والذهب والفضة ما يقوم به أود المسلمين ، ويعين المعدمين منهم على أمور دينهم .

ولم ينس المثنى المقاتلين فمنحهم حقهم من المغانم عدا السبي والأنعام ، ونال كل منهم نصيبا عادلا كبيرا من الخز والحريز واللؤلؤ والذهب والفضة والجواهر .. ولقد قيل انهم فى سوق بغداد ملأوا أيديهم بالبيضاء والصفراء أى بالفضة والذهب .

وصور بشر بن أبى رهم الهجيني — وهو واحد من فرسان المثنى المشهورين — هذه المغانم فى قصيدة له بعث بها الى عمر بن الخطاب قال فيها (١) :

وعند أمير المؤمنين نوافل وعند المثنى فضة وحريز

تولوية يزدجرد ...

لم يلبث الفرس حين زال عنهم روع البويب ان عادوا يفكرون فيما يوشك أن يصير اليه أمرهم اذا ظلوا فيما هم فيه من فرقة وانقسام وقد جال بخاطرهم أن هؤلاء العرب الغازين سيدخلون عليهم عاصمة ملكهم وخاصة أنهم ما زالوا يطاردونهم

(١) قيل ان بشرا بعث بقصيدته الى عمر يشكو سعد ابن أبى وقاص ، لان سعدا قسم الخراج فبقيت منه بقية فرقتها على قراء القرآن ، وكانوا سبعة ثم كتب الى عمر أنهم صاروا سبعين فأمره عمر بأن يفرقها فى أهل البلاد والنكاية فى العدو ، فلم يدخل بشر ضمنهم فكتب الى الخليفة يعتب على سعد ويذكر حسن بلائه وما كان يحوزه مع المثنى ، فلما قرأ عمر القصيدة امر سعدا أن يلحقه فى أهل البلاد وأن يقدمه ففعل .

في كل مكان ويطرسمون آثارهم ، ويغيرون على أحيائهم ويهدمون حصونهم ويتوغلون في بلادهم .

ورأى الفرس أن الأمر سيفلت من أيديهم ، وان مستقبلهم مهدد وان وجودهم في خطر وان كيانهم يهتز اهتزازاً عثيفاً يندر بقرب نهايتهم ولهذا قرروا أن تحشد قواتهم وأن تتحد كلمتهم حتى يستطيعوا مواجهة الأعداء وطردهم من أرضهم .

وقد كان الخلاف على أشده في الفرس وانقسم الناس الى حزبين يتنازعان السلطان على رأس أحدهما رستم وعلى الآخر الفيرزان ، ومن وراء كل منهما توجد طائفة من المؤيدين تنافس الطائفة الأخرى .. وكان لابد من تصرف حاسم ينهي الخلاف ويوحد الكلمة ويعيد للصفوف نظامها فاجتمع أهل الفرس بالقائدين رستم والفيرزان ، وتحدثوا اليهما في صراحة ووضوح « فما بعد بغداد وساباط وتكرت الا المدائن .. والله لتجتمعان أو لنبدأن بكما قبل أن يشمت بنا شامت ونشفيق نفوسنا منكما » .. وتشاور الرجلان واستكتبا بوران كتابا الى نساء كسرى وسراريه ، فجاءوا بهن وعرفوا منهن أنه لم يبق ذكر من ذرية كسرى الا يزجرد^(١) بن شهريار بن كسرى وهو ابن احدى وعشرين سنة، فاجتمعوا عليه وولوه القيادة وجعلوه على عرش أجداده وتساندوا في معاوته ، وتبارى الرؤساء في طاعته ومعوته ، واطمأنت فارس

(١) كانت أمه قد اخفته عند أخواله حين قتل شيرى جميع الذكور في ذرية أبيه .

وأخذت تعد العدة للثأر لكرامتها وشرفها ، ولطرد المثنى الى أطراف الصحراء أو القائه في الفرات .

خطة المثنى ...

لم تخف على المثنى مفاوضات الفرس في ديوان ملكهم ومحاولتهم جمع الكلمة وحشد القوى لمنازلته .

ولم يخف عليه أيضا أن أهل السواد لن يلبثوا حين تسير جيوش الفرس اليه أن يثوروا عليه ويهاجموا قواته .

وجمع المثنى قادة جيشه واخوته ، وعرض عليهم الأمر وتداول معهم وتشاور وبدا لهم أن الجيش الاسلامى فى حاجة الى مدد سريع عاجل يستطيع به أن ينظم صفوفه وأن يواجه عدوه ... واستقر الرأى على أمرين ...

الأول — مخاطبة الخليفة وعرض الأمر عليه فى صراحة ، وتوضيح الخطر المحدق بهم وما يتوقعونه من ثورة وطلب العون السريع العاجل .

الثانى — الانسحاب من مواقع المسلمين الى تخوم شبه الجزيرة ، وخاصة أن أهل السواد قد نقضوا ما بينهم وبين المسلمين وكفروا بالعهد .

وبعث المثنى بخطابه الى الخليفة عمر بن الخطاب . ثم أمر قواته بالانسحاب ، فانسحبت الى ذى قار واحتلت موقعا يمتد من الجبل (١) ، وشراف (٢) ، الى غضى (٣) ، وأعد

(١) موضع بالبادية على امتداد القادسية .

(٢) تقع جنوب الكوفة بثلاثة أميال (٣) جبل البصرة .

مسالح ونقطا عسكرية وأقام خطوطا للدفاع ، وتميز موقعه الجديد بأن المسالح كانت تنظر بعضها الى بعض وتعاون بعضها البعض .

جيش سلع

لما وصل كتاب المثني الى عمر وعرف منه حقيقة الموقف قال « والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب » ، وكتب الى المثني يعلنه موافقته على الخروج الى تخوم العراق والتفرق في المياه التي تلى العجم وطلب منه أن يستمد أهل النجدة حتى لا ييغته الفرس وهو في غير عدد وعدة .

وأمر عمر بعد ذلك بتجهيز جيش يسير الى العراق ، وبعث الى عماله يقول « لا تدعوا أحدا له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى الا اتخبتموه ثم وجهتموه الى .. والعجل العجل » ، فلما اجتمع لديه بضعة آلاف من الجند خرج بهم حتى نزل على ماء يدعى صرار وعسكر به ، ثم رأى أن يسير هو على رأس الجيش ، الا أن أصحابه طلبوا أن يعين على الجيش رجلا من أصحاب رسول الله ، وأن يبقى هو في المدينة وقالوا له « فان كان الذي يشتهي من الفتح فذلك ما يريد ويريدون والا ندب جندا آخر يفيظ به العدو حتى يجيء نصر الله » . وقال له عبد الرحمن ابن عوف « أقم وابعث جندا فقد رأيت قضاء الله لك في جنودك قبل وبعد فانه ان يهزم جيشك فليس كهزيمتك وانك ان تقتل أو تهزم خشيت أن لا يكبر المسلمون ، والا يشهدوا أن لا اله الا الله أبدا » .

واستجاب عمر لدعوة أصحابه واستشارهم في الرجل الذي يتولى قيادة الجيش فقالوا له « الأسد في برائه ! سعد بن مالك ابن وهب ! ^(١) ، وكان سعد في نجد فاستدعاه عمر وولاه حرب العراق وأوصاه قائلاً « يا سعد ، سعد بنى وهيب لا يغرثك من الله أن قبيل خال رسول الله وصاحب رسول الله فإن الله عز وجل لا يمحو السيء بالسيء ، ولكنه يمحو السيء بالحسن ! وليس بين الله وأحد نسب الا بطاعته فالناس شريفهم ووضيعهم في دين الله سواء يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة ، فانظر الأمر الذي رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يلزمه فالزمه وعليك بالصبر » .

(١) سعد بن أبي وقاص من بنى زهرة أخوال النبي ولد بمكة وعاش بها وكان من أسبق قريش إلى الاسلام إذ أسلم وهو ابن سبع عشرة سنة وقال في ذلك « رأيت في المنام قبل أن أسلم بثلاث كأنى في ظلمة بحر لا أبصر شيئاً إذ أضاء لى قمر فاتبعته فكأنى أنظر الى من سبقنى الى ذلك القمر فانظر الى زيد بن حارثة والى على بن أبى طالب والى أبى بكر وكانى أسألهم متى انتهيتم الى ها هنا ؟ قالوا الساعة !! وبلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الى الاسلام مستخفياً فلقيته في شعب جباد وقد صلى العصر فأسلمت فما تقدمنى أحد الا هؤلاء » وقال أيضاً « ما أسلم رجل قبلى الا رجل أسلم فى اليوم الذى أسلمت فيه وقد أتى على يوم وانى لثلت الاسلام » ، وكان سعد ذا نعمة ومال يرتدى الخنز ويلبس فى يده خاتماً من ذهب ، وكان فارساً شجاعاً مقداماً من الرماة شهد بدرأ وأحدا والخندق والحديبية وخيبر وفتح مكة وهو الذى قضى على دولة الفرس فى القادسية والمدائن .

نهاية المثنى ***

كان المثنى مريضا طريح الفراش يشكو من اصابته في واقعة الجسر واشتد عليه المرض وأحس بدنو منيته ، فاستخلف على الجند بشير بن الخصاصية ورجل الى قومه في شراف حيث لم يظل مقامه فمات ، وصاحب أخوه المعنى امرأته سلمى وسار بها حتى أدرك سعدا بشراف وأبلغه وفاة المثنى ، وقص عليه نبأ قابوس وبنى بكر بن وائل ، وكان المثنى قد بعثه اليهم حين علم أن البلاط الفارسى يسعى سعيا متواصلا لاستمالتهم الى جانبه ليضرب بهم خصومه الفاتحين ، ثم قرأ عليه وصية المثنى وهى أن يلازم العرب مراكزهم على حدود الصحراء ، وأن لا يقاتلوا أعداءهم فى عقر دارهم وأن يقاتلوهم على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب ، وأدنى مدرة من أرض العجم ، فأمامهم البادية فانها تحميهم وتقى ظهورهم والفرس لا يستطيعون التوغل فيها كما أن البادية تمكنهم من أن يعودوا المهاجمة خصمهم . ولما سمع سعد وصية المثنى حزن لموته وترحم عليه وأوصى المعنى بأهل بيته خيرا ، ثم خطب لنفسه سلمى أرملة المثنى ، وتزوج وبنى بها ، وكان الغرض من هذا الزواج كما هى عادة العرب تكريم المتوفى وتكريم أرملة حتى تظل فى مثل عزها وكرامتها فى حياة زوجها الأول ، وقد عاشت سلمى مع سعد وهى تتذكر زوجها البطل المثنى ، وتعيش على ذكراه فى خلال معارك المسلمين ضد الفرس ، وكان لها فى موقعة القادسية دور سبق الاشارة اليه فى باب سابق .

البابُ السّاس

المثنى الفائد

« ان الرجل الذى يتولى ادارة
المعركة لابد له أن يكون ذا موهبة
خاصة هى القدرة على القيادة » .

قامت الدولة الاسلامية أول ما قامت في مكة والمدينة ، ثم في أنحاء الجزيرة العربية ، وامتد ظلها بعد ذلك في ربوع الأرض فشملت بلادا بعيدة ودولا عظيمة وامبراطوريات كانت قائمة ، ثم زالت وأصبحت تمثل جانبا في الرقعة الاسلامية . وهذا التوسع الكبير الذى امتد من بلاد العراق شرقا الى المغرب الاfrیقی مهدت له دوافع وعوامل وأسباب ..

وتأتى في المرتبة الأولى من هذه الدوافع والأسباب والعوامل المبادئ الانسانية العظيمة التى جاء بها الاسلام ودعا الى التمسك بها وجعلها أساسا لحياة الناس .. لقد ناقش الناس هذه المبادئ وأحسوا بضرورتها في حياتهم ، فأقبلوا عليها وقد آمنوا بها وتجاوبت مشاعرهم واحساساتهم بها وتفاعلت عواطفهم معها واستجاب الناس في جميع البلاد التى دخلت في الاسلام والتى أصبحت ضمن حدود الدولة الاسلامية الى كل دعوة وجهت اليهم للايمان بالاسلام والدخول فيه ..

ولا شك في أن العدالة والمساواة واقرار الحريات ورفض الظلم كانت من أهم هذه المبادئ .. فبلاد الفرس مثلا كان أهلها يعيشون في حالة اجتماعية منفرة .. ضرائب كثيرة لا عدل في توزيعها ولا رحمة في جمعها .. ومظالم متعددة لا سبيل الى صدها .. وطبقات متفاوتة تستعبد بعضها البعض الآخر وتتميز عنها بميزات لا حدود لها .. وعاش الناس في نفور من هذه الحياة

الاجتماعية ، وكانوا يتطلعون الى المستقبل ، آملين أن يحدث تغيير في حياتهم .. وسمعوا بالاسلام وبمبادئه وبمثلته وبعدائه فتفتحت قلوبهم وعقولهم وتنبهت مشاعرهم واحساساتهم وعاشوا ينتظرون رحمة الله فتأتيهم الدعوة من الجزيرة ليتخلصوا من حياتهم التي يعيشونها ويدخلوا في الدين الجديد ينعمون في ظله بالأمان والاطمئنان وهكذا كان الحال في بلاد الشام حيث كانت تقوم دولة الروم . وهكذا كان الحال أيضا في مصر وبلاد شمال أفريقيا ، واستجابت هذه البقاع كلها لمبادئ الاسلام الخالدة وآمنت بها ، وكانت هذه الاستجابة من العوامل الكبيرة التي ساعدت على الفتوح الاسلامية لأن هذه الاستجابة زلزلت كيان الجبهة الداخلية للأعداء .

وكان في مقدمة هذه العوامل الدور الكبير الذي قام به الخليفةان أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما ... فعندما تولى أبو بكر الخلافة واجه مشكلة خطيرة الا وهي الفتنة التي تعرض لها الاسلام بعد وفاة الرسول حين ارتد كثير من المسلمين عن الاسلام ويشهد التاريخ أن بقاء كيان الدولة الاسلامية سليما متماسكا في هذه الفترة يرجع الى جهد أبي بكر وصدق عزمته ... ثم رأى أبو بكر أن يشغل المسلمين عن العودة الى اثاره القلائق في داخل الجزيرة فوجههم الى بلاد الشام ، ثم استجاب لدعوة المثنى فوجه جيوشه الى بلاد العراق .

ولا ينكر فضل الخليفة عمر بن الخطاب ، فقد مات أبو بكر خلال المعارك الكبيرة في أرض الشام وتولى هو أمر المسلمين ،

وألقيت على عاتقه مسئولية العمل من أجل الحفاظ على المكاسب الكبيرة التي أحرزها الاسلام . وأدى عمر واجبه وقام بالمسئولية خير قيام . واليه يرجع الفضل كل الفضل في امداد الجيوش الاسلامية بالمدد والعتاد كلما تطلب الأمر امدادهم مما جعل هذه الجيوش على استعداد تام وقدرات متواصلة وامكانيات وطاقات تمكنها من أن تحقق رسالة الاسلام .

وسجلت — القيادات الناجحة — التي أسندت اليها عمليات الفتح والتي قدمت مثلاً عظيماً في فن القيادة وفي فن الحرب والقتال ورسمت الخطوط العريضة لنظم الحرب وتكتيكاتها ، ووضعت رغم بداءة السلاح وبداءة الفن الحربى مخططات المعركة — صفحات مشرقة في التاريخ الحربى رغم أن كثيراً من الكتاب والمؤرخين تناسوها تحت ظروف متعمدة بقصد انزال الستار عن ناحية هامة في حياة المسلمين ولا يختلف اثنان في أن الرسول الكريم كان نبراساً لقيادة الاسلام فوضع لهم الأسس ، ورسم لهم الوسائل وحدد لهم الطرق فساروا على الدرب وتفننوا في فن القتال حتى بزغت أسماؤهم وعظمت سيرتهم واحتلوا مكاناً مرموقاً في التاريخ .. فالمتتبع لحياتهم في المعركة يرى في وضوح ويلمس في جلاء مقدراتهم وفهمهم وعبقريتهم حتى أنهم أصبحوا يمثلون مدرسة عسكرية قائمة بذاتها ، وحتى أن كثيراً من المدارس العسكرية المتقدمة أخذت عنهم فن الحرب وأسسها ونظمها ووسائلها والتاريخ الحربى يؤكد هذه الحقيقة التى حاول أعداء الاسلام وأعداء العروبة طمسها واخفاءها رغبة في القاء الضوء على كفاءات

العروبة طمسها واخفائها رغبة في القاء الضوء على كفاءات ظهرت بينهم فأرادوا أن يجعلوها نبراسا للعسكريين وأن يرجعوا الفضل في تطوير نظم الحرب اليهم دون أصحابه الحقيقيين . والحديث عن القيادات الناجحة في الاسلام يحتاج الى مؤلفات كثيرة وقد تناولها كثيرون في مؤلفاتهم كما تناولناها في بعض مؤلفاتنا بالشرح والتفصيل .

والمثنى بن حارثة الشيباني واحد من القادة العرب العسكريين كانت له جولات واسعة المدى في مجال الحرب والقتال ، وكان له باع طويل في المجال العسكري ، وكتب لنفسه صفحات خالدة وسجل مواقف بطولية ، واستطاع أن يرقى سلم المجد الحربى في سنوات قليلة وأن يحتل مكان الصدارة بين القادة العسكريين ، وأن يبرز اسمه كمحارب فذ وكفائد كفاء في الميدان وأن يحرز انتصارات تاريخية برغم أنه كان يقابل بجيوش قليلة العدد والعدة جيوشا تفوقها في الأفراد والسلاح تقف من ورائها أمم ذات مجد وحضارة وقدرات .

لقد قال مارشال فوش « ان الجيش الذى يريد أن يفوز بالنصر لا بد أن تتوفر لديه عوامل من الدرجة الأولى أهمها عامل القيادة » و « وان الرجل الذى يتولى ادارة المعركة لا بد أن يكون ذا موهبة خاصة هي القدرة على القيادة » والمثنى حين وصل الى مرتبة القيادة العظيمة لم يكن قد ولد قائدا ، وانما هيأته الظروف المحيطة به ، وساعدته ، وأثارت صفات القيادة الكامنة في نفسه فصار عظيما لقد أتقن المثنى مهنته اتقاناً تاماً ، اذ أنه تعلم فن

الحرب من البيئة التي عاش فيها ، وشهد وهو حدث قصص الحروب التي خاضها أهله وعشيرته وقومه ، وسمع عن القتال العنيف الذي كانت قبيلته طرفا فيه ، وهكذا نشأ مشبعا بفكرة الحرب مشدودا الى الميدان بعقله ، وفكره وأعصابه حتى اذا ما دخل المعارك وخاض غمارها استطاع أن يثبت وجوده وأن يؤكد عبقريته وأن يقفز باسمه الى مكانة سامية بين القادة أجمعين .

ونحن في حديثنا القادم سنتناول المثني القائد بالحديث من زاويتين ..

- الأولى — فن القيادة ومميزاتها وسماتها وشخصية القائد .
- الثانية — مبادئ الحرب وأصولها في حروب المثني .

المثنى وفن القيادة

المثنى والقيادة ..

ان الفن الحربى مع تطوره وتطور الأسلحة وتطور وسائل القتال يرتبط ارتباطا وثيقا بالقائد الذى يتولى قيادة الجيش .. والقيادة الناجحة لا غنى عنها فى أى حرب ناجحة فهى من عوامل الدرجة الأولى التى يرجع اليها النصر فى أية معركة .

والقيادة فن لا يمكن مشاهدته ولكن يمكن التعرف عليه بأثاره وتناججه ، وأن تعبئة آلاف الجنود ليست بالمهمة الرئيسية فى تجهيز الجيوش ، ولكن المهم هو وجود القائد الكفء فعلى قدر كفاءته تكون كفاءة رجاله .. وتاريخ الحروب يؤكد أن القائد الجيد هو الذى يحرز النصر .. والمقصود بجودة القائد وبكفاءته ما تكون عليه روحه ومشاعره وتجاربه وصلاته بالجند وكيفما يكون القائد تكون جنوده ، فان القوات تتأثر الى حد كبير بالقائد وبسلوكه وبالمثل التى يقدمها لهم ... ولقد تولى المثنى ابن حارثة قيادة الجيش العربى الاسلامى فى حربه ضد بلاد الفرس وكان أول قائد عربى ينتج الى هذه البلاد ويوجه نظر الخليفة أبى بكر إليها ، ثم يمهد أمامه سبيل ارسال الجيوش حتى اذا ما قضى أبو بكر اتجه بأماله ورغباته الى الخليفة عمر ، وظل يحجب اليه مهمة اتمام الغزو فاستجاب له وتم فى عهده غزو العراق .

ولقد نجح المثني كقائد واستطاع أن يحتل مكانة مرموقة بين القادة ومرد ذلك أنه كانت تتوافر لديه صفات القيادة ومواهب القائد وعناصر الشخصية ... ونحن من دراستنا للصفات والمواهب التي تميز بها العسكريون في مختلف العصور نجد أن هناك شبه اجماع على صفات معينة لا بد أن تتوافر في القائد .. منها الايمان والثقة والارادة والمثابرة والاهتمام بالجند ومواجهة الحقائق والقدرة والشخصية والشجاعة والارادة الصحيحة وسعة الحيلة وانكار الذات وبعد النظر ، ولقد أجمع الرواة وكذلك المؤرخون على أن المثني كان شجاعا مقداما يتصف بما اجتمع عليه الرأي ، وان المعارك الدموية التي خاضها وقذف بنفسه في أوارها ونتائج تلك المعارك الفاصلة وما صارت اليه من النصر الحاسم لتؤيد أقوالهم وتؤكد صدقها .

ومن ألزم ما يجب توافره لدى القائد الشخصية القوية وليس من السهل تعريفها تعريفا علميا كاملا فالبعض يقول انها مجموعة صفات جسمية وعقلية وخلقية يتصف بها الانسان ... والشخصية هي صفة نسبية وقوى متنوعة تختلف في نوعها وقدرتها باختلاف الأشخاص ولا تعرف الا بآثارها ومظاهرها وللشخصية مظاهر متعددة مثل .. الخلق والثقة بالنفس والاعتماد عليها وقوة الارادة والتنصيم والقدرة والجاذبية ، ونحن حين ندرس شخصية المثني نجد أن عناصر الشخصية قد توافرت عنده وتعددت حتى جعلت منه قائدا يتميز عن غيره من القادة بالشخصية القيادية القوية .

هذا فوق أن القادة العظماء الذين خلدتهم التاريخ لم يولدوا كذلك ولكنهم خلقوا هذه العظمة ، لأنهم اكتسبوا مهنتهم وأتقنوها ، ولا يستطيع فرد أن ينكر أن البيئة التي نشأ فيها المثني كانت ذات أثر كبير عليه ، مما أدى الى ابراز صفات القيادة ومواهبها .. فهو قد شب بين بنى شيبان وهؤلاء كانوا بين العرب مثلاً في القوة والعزة والأنفة والاباء والشمم فغرسوا في نفس ابنهم التصلب بالعقيدة والوجود بالنفس والصدق في العزيمة ، والتفنن في ضروب الفروسية والاستماتة في الحرب ، والفراسة في تعبئة الجيوش... وهذه البيئة التي عاش فيها المثني خاضت غمار معارك كثيرة شهدتها وعاشها فأكسبته الكفاءة والمقدرة والخبرة بأساليب الحرب ودراسة النفسيات العسكرية مما دفعه الى أن يرمى بسهم المسلمين مملكة الأكاسرة ويقا تل الفرس ويثبت دعائم الاسلام في ربوع السواد والعراق .

اذن ما هي الصفات والمواهب ومظاهر الشخصية التي جعلت من المثني قائدا ممتازا له في تاريخ الحروب سجل مشرف مشرق . ان الباحث عن سر النجاح الكبير الذي أحرزه المثني يجد أنه يكمن في مدى ايمانه العميق ، فمما لا شك فيه أن قوة الايمان هي التي تدفع الى النصر والمتبع لتاريخ الحروب يللمس أن النصر كان حليف من هم أقوى ايمانا وأثبت عقيدة .

ولقد دخل الايمان قلب المثني وملا نفسه منذ سمع بدعوة الرسول الكريم حين خرج ومعه على بن أبي طالب وأبو بكر الصديق ليعرض بنفسه على قبائل العرب دعوته ، فقد نزل الرسول

وصاحبه بمجلس عليه السكينة والوقار يضم كبار رجال
بنى شيبان ومن بينهم المثني بن حارثة وتحدث اليهم الرسول
الكريم فقال « أدعوكم الى شهادة أن لا اله الا الله ، وحده
لا شريك له وأنى رسول الله ، وأن تؤوئنى وتنصرونى حتى أؤدى
عن الله الذى أمرنى به ، فان قريشا قد تظاهرت على أمر الله وكذبت
رسوله واستعنت بالباطل عن الحق والله هو الغنى الحميد » ،
واستمع القوم الى الرسول الكريم وهو يتلو بعض آيات القرآن
واستمع اليها معهم المثني وتجاوبت نفسه مع الدين الجديد وتفهم
فى عمق رسالته ، ووقع القرآن فى نفسه موقعا حسنا ، ووجد
أن كلمة الحق تدوى فى أرجائه ، فاتبعه بجوارحه ومشاعره
وأحاسيسه الى الرسول تلتقط أذناه كل كلمة حتى اذا ما انتهى
الرسول من عرضه قال له المثني « قد سمعت مقاتلك واستحسنيت
قولك يا أخا قريش وأعجبني ما تكلمت به » . وتمر الأيام واذا
بالمثني يجد دين محمد فى اتساع ورجاله فى كثرة وقريش والقبائل
الأخرى تنهزم أمامه مرة وراء الأخرى وتعجز عن صد الدين
الجديد فيقع الاسلام فى قلبه ويستجيب له ويؤمن به ايمانا عميقا
يمنعه حين يرتد قومه من أن يرتد وانما يظل على دينه وينضم
الى جيوش المسلمين التى جاءت تحارب المرتدين فى البحرين
بقيادة العلاء بن الحضرمى ويعاونه معاونة صادقة فى القضاء على
المرتدين ثم لا يقف عند هذه الحدود وانما يسير على رأس جيش
ينشره على طول ساحل البحر ويتلقى المنهزمين ويصدهم ويفتك
بهم حتى تمتد انتصاراته على طول خليج البصرة حتى هجروا

الأراضي الشمالية والقطيف وحتى تبلغ قواته دلتا الفرات .
وهكذا دفعه الايمان القوى الذى كان راسخا فى صدره الى
اعلاء كلمة الله وانتصار الشريعة السمحاء، كما دفع بتفكيره ناحية أرض
السواد فتقدم اليها مغيرا عليها يعرض الاسلام على أهلها ويحطم
قواعد العرش الفارسى ويهد ملكهم ويزلزل كيانهم ويقضى عليهم..
والايمان هو الذى جعله يلقي الرعب فى قلوب أهل السواد فتتهار
معنوياتهم وتضعف قواهم ويستسلمون حين يشتد اللقاء ويعنف
القتال وهو الذى جعله ينتقل الى الخليفة فى المدينة يعرض عليه
صورة لوقائعه ويرغبه فى غزو العراق ويهون عليه أمرها ويغريه
ببلاد الفرس ، قلما استجاب له وسير اليه خالد بن الوليد رضى
تحت تأثير ايمانه لأوامر أبى بكر فعمل تحت امرة خالد — وقد
كان قائدا للجيش قبل مجيئه — كجندى بسيط متواضع وهو
الذى جعله يواجه جيوش هرمز فى قوة وصبر بقواته الضئيلة بعد
أن خاطب كسرى بقوله « انما أنت أحد رجلين ، اما باغ فذلك
شر لك وخير لنا واما كاذب فأعظم الكاذبين عقوبة وفضيحة عند
الله وفى الناس الملوك » . وهو الذى جعل يقاتل جيشا يفوقه عددا
وعدة فى بابل وفى غيرها من المعارك فينتصر انتصارا ساحا وينقل
آية المجد من أبطال الفيل الى أبطال الخيل والجمال . وهو الذى
جعله ينتج الى عمر بن الخطاب يطلب منه أن يتم رسالة أبى بكر
ويخاطب الناس الذين كانوا يخشون الخروج الى العراق « لقد

تبججنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقى السواد وشاطرناهم
 واجترأ من قبلنا عليهم ولها ما شاء الله ما بعدها .
 وهو الذى جعله يرضخ مرة أخرى لرغبة الخليفة فيعتزل
 القيادة ويعمل جنديا بسيطا متواضعا تحت امره أبى عبيد ولولا
 وفاته لرضخ تحت تأثير ايمانه لامرة سعد بن أبى وقاص دون
 أن يكون لذلك أدنى أثر فى نفسه فهو قد وهب نفسه وحياته
 للجهاد فى سبيل الله تحت تأثير ايمانه العميق بالدين الجديد
 هذا الايمان الذى ذهب به فى التضحية والاىثار مذهبا لم تعرفه
 الحياة لغيره من الأبطال والذى سما به عن الحياة فما كان يكثرث
 لشيء فيها أو ييأس على فائت منها . وهو الذى جعله يعيش حياته
 متجها الى الله يستمد منه العون والقوة فى جميع مواقعه ومعاركه
 وغاراته وكان مبدؤه الذى عاش عليه حياته هو تلك الكلمات
 التى قالها لجنده فى مناسبات مختلفة « ثقوا بالله وأحسنوا به
 الظن » و « عاداتكم فى أمثالكم انصروا الله ينصركم » و « يا أيها
 الناس احمداوا الله وتناجوا بالبر والتقوى ولا تناجوا بالاثم
 والعدوان » .

ان الثقة بالنفس والاعتماد عليها من أهم عناصر تكوين

شخصية القائد ، فمتى وجدت الثقة بالنفس أصبح من السهل
 الاعتماد عليها فى كل عمل ممكن والثقة تتولد نتيجة للعلم والمعرفة
 والمقدرة . والمشى بن حارثة حين فكر فى القيام بغاراته المتعددة
 على بلاد السواد كان واثقا بنفسه مقتنعا بأنه سوف ينتصر فى
 هذه العمليات التى حمل نفسه عبء القيام بها ، ولعل ثقته جاءت

نتيجة للدراسات الكبيرة المتعددة التي قام بها عن أهل السواد وأحوالهم وعرف منها أنهم يعيشون حياة اجتماعية منحلة منفرة ، وأنهم يسعون الى حياة أفضل من تلك التي يعيشونها . لقد درس المثني حياة أهل السواد دراسة عميقة مستندا في ذلك على الخبرة الشخصية الصحيحة .

وثمة سبب آخر دفع بالثقة الى نفس المثني فهو قد سمع بما وعد الله به المؤمنين على يد رسوله الأعظم حين صرح لهم صلوات الله عليه في غزوة بدر بأن لاحت له أنوار قصور الحيرة ومدائن كسرى وقصور الروم بشارة له من الله بأنها ستفتح على يد أصحابه وستأخذ بهدأته .

ولا شك في أن ثقة المثني بنفسه هي التي جعلته يتجه الى أبي بكر يدعوه الى غزو العراق والى امداده بالجند حتى يستطيع أن يواجه الفرس وأن يقضى عليهم ، ثم هي التي جعلته يواصل السعى لدى عمر حتى أقنعه بارسال أبي عبيد الى العراق ليتتم الرسالة التي بدأت في عهد أبي بكر ، ثم هي التي جعلته يسعى من جديد لاقتناع عمر بارسال جيش لمواجهة الفرس بعد أن تجمعت كلمتهم واتحدت طوائفهم وذهب خلافتهم واتفقوا على محاربة المسلمين والقضاء عليهم وطردهم خارج ديارهم أو اغراقهم في الفرات .

ومما لا يختلف فيه اثنان ان الناس يتقون بمن يثق في نفسه ، ولهذا كان واضحا أن جند المثني قد وضعوا ثقتهم الكبيرة به ، وليس أدل على صحة ذلك من أنهم حاربوا معه وبجانبه ولازموه

في معاركه المختلفة وغاراته المتعددة وشاركوه متاعب المعركة وجهدها وقاسموه حلوها ومرها .

ان قوة الارادة من العوامل الهامة للنصر في المعركة .. فالقائد صاحب الارادة القوية هو الذى يستطيع أن يسيّر أمور المعركة ويحركها حسب رغبته وهو الذى يستطيع أن يخوض المعركة بثقة وأمل وعزم وتصميم ، وهو الذى يستطيع أن يخرج منها منتصرا قويا .

والمثنى كان كما يبدو من تاريخه قوى الارادة وحياته العسكرية كلها أدلة واضحة على قوة ارادته ، فهو حين درس أحوال العرب الذين كانوا يقيمون بالسواد على حدود بلاد الفرس وحين أحس أنهم يعيشون حياة مذلة وهوان رأى أن يحارب الفرس وأن ينقذ هؤلاء مما هم فيه فشن غاراته المتعددة على دهشتنا باذ أردشير والأبلة والحيرة ، وألقى الرعب فى قلوب ساكنيها وشجع القبائل العربية على النفور والتمرد وحمل السلاح ضد الفرس . والمثنى حين استمر فى هجومه على أرض السواد ومواجهته للأعداء فى المواقع المختلفة المتوالية كان يؤكد قوة ارادته وتصميمه القاطع على الوصول الى هدفه وتحقيق ما يجيش فى صدره من آمال وأحلام ... والمثنى حين تناسى اصابته البالغة فى موقعة الجسر وظل يقاتل ويؤدى دوره فى المعركة انما كان يقدم المثل والدليل على قوة ارادته وعلى رغبته وتصميمه على الاستمرار فى المعركة رغم كل الظروف حتى الحصول على النصر . ومما لا يختلف فيه اثنان أن الجند دائما ينظرون الى القائد

ويتمثلون به ويعملون كما يعمل ويعيشون حياتهم كما يعيش ، فهو مثلهم ورائدهم في كل حركة وفي كل عمل وفي كل تصرف ، والجنود عادة يصوغون أنفسهم في القالب الذي يصوغه لهم القائد اذا نال هذا القائد احترامهم وتقديرهم ... والمثنى كان دون شك قدوة طيبة لجنسده . بدليل أنهم قدروا فيه رجولته وخلقه وشخصيته ومظهره ومقدرته ، وبدليل أنهم كانوا فخورين به الى حد الزهو لأنهم شاطروه مجده في ميادين القتال وقاسموه انتصاراته وحملوا معه عبء الهزيمة حين هزم المسلمون في موقعة الجسر . وكان المثنى لا يكتفى بوضع الخطط وانما كان يشارك في تنفيذها شأنه في ذلك شأن أقل جندي ، فما من معركة خاضها رجاله الا وكان هو في المقدمة وعلى رأس الجيش .. انه حين بعث فرات بن حيان وعتبة بن النحاس للاغارة على أحياء تغلب والنمر بصفين ، لم يهدأ بالا لأنه لم يشترك معهما في الاغارة ، ولم يلبث أن امتطى صهوة فرسه ولحق بهما بعد أن خلف على الناس عمر بن أبي سلمى الهجيني وكان المثنى اذا ما وضع يده على المغانم والمكاسب يقوم بتوزيع نصيب الجند عليهم لا يحتفظ لنفسه بشيء ولا يحرم جنده من حقهم فيها وكان كأى قائد ناجح يقدر رجاله ويعطيهم حقهم ويمنحهم الفرصة لاثهار مواهبهم فهو حين كلف بمطاردة هرمز اعترض طريقه حصن المرأة ورأى أن الاستيلاء على هذا الحصن قد يعطله عن هدفه الرئيسي بعض الوقت ، فأسند أمر حصار الحصن الى أخيه المعنى وتقدم هو الى هدفه .. وهو حين أراد أن يخرج الى المدينة لمقابلة أبي بكر خلف

على الجند بشير بن الخصاصية وهو كذلك في موقعة البويب يستعين ببشر بن أبي رهم والنسير ومذعور ، وهو حين أحس بدنو أجله ترك مقاليد الأمور في الجيش لبشير بن الخصاصية ليتولى شئون الجيش حتى يصل القائد الجديد سعد ابن أبي وقاص . ولم يكن المثنى ليحجم في الوقت الذي يكون فيه التقدم واجبا ، فهو مثلا في بابل حين وجد صفوف جنده تضطرب وتختل نتيجة لوجود فيل كبير في جيش عدوه قرر قتل هذا الفيل ، ولكن من الذي يجسر على مواجهة هذا الحيوان الضخم الذي يثير منظره الرعب في نفوس العرب .. وكيف يمكن قتل هذا الحيوان وتخليص العرب من شروره ؟ ، ان المثنى أحس بالمهمة الخطيرة فأبى أن يسندها الى واحد من رجاله ، وقرر أن يقوم هو بها ليكون قدوة ومثالا في الاقدام والشجاعة فتقدم نحو الفيل وأخذ يحاوره وهو ينهال عليه طعنا بالرمح حتى أصابه في مقتل ، وأنقذ المسلمين من عدو كان يفرق جموعهم ويشنت صفوفهم . وتظهر قدوة المثنى مرة أخرى في موقعة الجسر حين رأى ما عليه المسلمون من غم وهم بسبب قطع الجسر فأسرع الى عروة بن مسعود يأمره بأن يشد الجسر ، وأن يمنع ما بينه وما بين العجم ، ثم تولى هو مهمة مهاجمة الفرس ومعه جماعة من الفرسان ، وكان يصيح في الناس « يا معشر العرب أنا دونكم فاعبروا على هيئتكم ولا تفرقوا أنفسكم » . كما أثبت المثنى أنه قدوة طيبة في تنفيذ الأوامر والسمع والطاعة حين جاءه وهو القائد المنتصر أمر الخليفة بأن يترك مقاليد القيادة لأبي عبيد فقبل ونفذ

دون ضيق أو تبرم أو ملل ، فهو يعرف أنه جندي يؤدي رسالة ألقيت على عاتقه وعلى عاتق زملائه المسلمين ، وأنه يجب أن يقوم كل فرد بواجبه سواء كان في مرتبة القيادة أو في صفوف الجند .

وكان المثني يتميز بصفة انسانية كبيرة فقد كان يعمل في صمت ايمانا منه بأن العمل في صمت هو سبيل النجاح ، ومن هنا ظهرت حقيقته للناس فقدروا كفاءته واعترفوا بشخصيته ومقدرته .. فالمثني الذي انتصر في جميع معاركه لم تمتلئ نفسه بالغرور، ولم يتظاهر بالتكلف أو التصنع ولم يتعال على جنده ، وانما عاش معهم كواحد منهم حتى أحس جنده بأنه رجل صادق الحس حسن البصيرة جيد التقدير يحكم على الأمور بفهم لا يأخذ بالمظاهر والقشور يضبط نفسه ولا تثيره الصغائر ولا تفقده الكبائر الصواب .

كان المثني محرر النفس من التعاطم والكبرياء والغطرسة والمظاهر الكاذبة وكان يبدو أمام الناس على حقيقته فلا يلبس غير ثوبه ولا يبدو في مظهر ليس له ، ولا يدعى القول ولا يعطى لنفسه من التصوير ما لا يستحق . ولعل أعظم دليل وأسطع برهان على تواضعه ما حدث بعد انتصاره العظيم في موقعة البويب ، اذ اجتمع مع جنده يتجادبون الحديث ويتسامرون وهم معتبطون بالانتصار ، وتذكر المثني وهو في جلسته هذه بعض الجند المسلمين الذين قتلوا عند الجسر حين قطعه ليمنع الفرس من اجتياز النهر فاستماتوا وقتلوا كثيرا من المسلمين فقال المثني

لرجاله « لقد عجزت عجزه » ، ثم يقول « فاني غير عائد فلا تعودوا ولا تقتدوا بى فانها كانت منى زلة » .. قائد يعترف لجنده فى مثل هذه الصراحة بأنه قد أخطأ ، ثم يدعوهم الى عدم الاقتداء به ، ثم يعدهم ألا يعود الى هذا الخطأ مرة أخرى .. ان هذا القائد بهذا التصرف يؤكد تواضعه ومعرفته قدر نفسه ، ووصوله الى مرتبة من التواضع لا يدانيه فيها أحد .. انه قد ندم على ما فعل ثم جمع جنده ولم يخجل من أن يتحدث أمامهم عن خطئه وأن يوضحه لهم حتى يستفيدوا منه فلا يقعوا هم فيه .

وانظر الى تواضعه الذى تتجلى فيه روح المساواة بأجلى مظاهرها فهو فى موقعة البويب يمر بين الصفوف يحادث جنده ويشجعهم ويحثهم على القتال ويقول لكل منهم « والله ما يسرنى اليوم لنفسى شىء الا وهو يسرنى لعامتكم » .

اتفق القادة على أن أية معركة تستلزم من القائد قبل أن يخوضها تقدير موقفه وموقف أعدائه ، بناء على هذا التقدير يضع الخطة التى يواجه بها عدوه وتقدير الموقف من العمليات الشاقة التى تحتاج الى جهد ووضوح ومقدرة وفهم ، والقائد الكفء هو الذى يستطيع أن يقدر الموقف تقديرا صائبا سليما . ولقد تميز المشنى القائد بحسن تقديره للموقف تقديرا يؤهله لأن يدخل المعركة مطمئنا الى تتيجتها .. فهو فى بابل يرى أن وجود الفيل خطر على قواته ، وفى موقعة الجسر وجد أن قطع الجسر مضيعة لجنده ، فيقدر الموقف بسرعة ويقرر قتل الفيل لأن فى قتله

رفعا لمعنويات جنده ويقرر شد الجسر لأن في شدة اسعافا
للمسلمين المتقهقرين .

كما أنه حين وصلته الأخبار عن الفرس بعد موقعة النمارق ،
ويعلم أن القائد نرسى موجود بقواته في كسكر في انتظار وصول
المدد اليه بقيادة الجالينوس فيقدر الموقف بسرعة ويرى أنه
يجب الاسراع بمقابلة نرسى ومقاتلته والقضاء عليه قبل أن تصله
الامدادات فتزيد من قوته وتقوى جبهته فتصمد أمام المسلمين
وتحتاج الى جهد أكبر للقضاء عليها ويشير بذلك على أبي عبيد
قائد الجيش .. وبهذا التقدير الصائب للموقف انتصر المسلمون
في السقاطية ثم في باروسما .

وفي موقعة الجسر ثبت أن المثنى استطاع أن يقدر الموقف
تقديرًا صائبًا سليما حينما عرض الفرس على أبي عبيد أن يعبروا
اليه النهر أو يدعهم يعبرون اليه ، فقد كان المثنى يرى أن يعبر
الفرس النهر دون العرب وعرض هذا الرأي على أبي عبيد فضرب
به عرض الحائط ، وصمم على أن يعبر المسلمون وأمر جنده
بالعبور فترتب على ذلك أن حلت بالمسلمين مصيبة كبيرة وهزيمة
مروعة ونهاية مرة لما كان يخفيه الفرس من المكيدة والغدر
للمسلمين اذ هاجموهم خلال عبورهم النهر وأوقعوا بهم الهزيمة
وأصابوهم اصابات عنيفة .

ولقد ترك المثنى عندما أحس بدنو أجله رسالته لسعد ابن
أبي وقاص تؤكد فراسته وصدقه وحسن تقديره للموقف فهو يدعو
سعدا الى أن يلازم بجنده مراكزهم على حدود الصحراء حتى

تحمى الصحراء ظهورهم في حالة انتصار العدو عليهم ولتكون لهم قاعدة يهاجمون منها عدوهم اذا هزم أمامهم والمثنى وهو يترك هذه الوصية يعرف تماما أن الفرس لا يجيدون حرب الصحراء ، كما أن العرب لا يجيدون القتال في داخل المدن وهو بذلك يهيء للعرب الميدان المناسب للمعركة حيث تستطيع طبيعتهم أن تنتصر. كان المثنى من القادة العظماء الذين انقطع نظيرهم ، وقد تفرد بخلال لم تتوفر في غيره .. كالمقدرة .. والكفاءة .. والخبرة بأساليب الحرب ، ومن أهم ما يتميز به الاقدام .. وقد دفعه الاقدام الى أن يوسع نطاق الفتح وأن يستثمر الفوز بدحر الأعداء ، ويرمى بسهم المسلمين مملكة الأكاسرة ويقضى على هذا الملك الطويل العريض ، وما زال المثنى يقاتل الفرس ويستخضع الخارجيين من أهل العراق ويثبت دعائم الاسلام حتى أصبحت بلاد الفرس جزءا من الأمة العربية تمثل قطاعا هاما من قطاعاتها .

ومن عجب أنه لم يخض غمار الحرب ليبلغ وطرا أو يقضى لبانة في نفسه فقد كان همه الأول بل الأكبر نصرته المسلمين واعلاء كلمة العرب ، وان حياته الطويلة في ميدان الحرب منذ بدأ غاراته الى أن استعان بالخليفة أبي بكر ثم بالخليفة عمر الى أن انتقل الى جوار ربه تؤكد اقدامه الذي فاق به أقرانه فمنذ أحس بواجبه ناحية الاسلام وهو يجاهد في سبيله حتى أصيب في الجسر اصابة كانت السبب المباشر في موته .

ولا يفوتنا أن نذكر أن المثنى كان قائدا قوميا يؤمن بقوميته

ويتفانى في سبيلها ، فقضى حياته مجاهدا في سبيل نصره العرب منكرًا ذاته من أجل مصالح قومه . وكانت قوميته من أكبر معنوياته فهي التي مهدت له سبيل الحصول على الزعامة بين قومه فعدا زعيما عظيما احتل مكانة مرموقة في تاريخ العرب . وهي التي دعت كثيرا من القبائل النصرانية التي يجرى في عروقها الدم العربي لتنضم اليه وتحتل الأخطار وتحارب تحت لوائه وتلقى الموت تحت رايته فداء لقوميتهم التي كانت تغلى مراحلها في صدر المثني ... ففي موقعة الجسر مثلا انضم حرصة بن المنذر الطائي المكنى بأبي زيد الشاعر النصراني الى قوات المسلمين ليحارب معهم الفرس أعداء العرب وقد عز عليه أن ينخذل قومه وينتصر عليهم من يختلفون عنهم لغة وتاريخا وقومية ومسكنا ودما .

والمثني بدافع من قوميته خاطب أنس بن هلال النمري « يا أنس انك امرؤ عربي ، وان لم تكن على ديننا فاذا رأيتني قد حملت على مهران فاحمل معي » . وخاطب أيضا ابن مردى الفهر ونصاري بنى تغلب ليجمع القومية العربية جميعا ضد أعدائها الفرس .. واستطاع هؤلاء الذين جمعهم المثني تحت راية القومية العربية أن يحرزوا نصرا عظيما في البويب فأزالوا من الأذهان الهزيمة المرة التي منى بها العرب في الجسر .

وفوق ذلك كله عرف عن المثني أنه كان ذا همة قعساء ، وعزيمة ماضية .. واردة صلبة .. ونشاط مستمر .. ورباطا جاش .. وثبات قلب .. وبعد نظر وأنه كان يقظا .. حسن المظهر . شجاعا .. حازما غيورا على عمله .. قوى التأثير في جنده .

مرحاً .. نزيهاً حكيماً .. عادلاً .. منكراً لذاته .. انه كان على درجة من الذكاء تمكنه من أن يتغلب على ما يواجهه من مشكلاته كنتلك المشكلات التي اعترضته حين كان يغير على سوق بغداد وصفين . وانه كان يؤمن بالولاء .. وكان يشارك جنده مشاعرهم وأحاسيسهم .. وأفراحهم وأتراحهم .. وكان يتجنب العناية بمصالحه وراحته على حساب الآخرين .. وكان يثير الحماس في نفوس جنده ويدفعهم الى التعلق بالنصر مهما كانت ظروف المعركة .. وانه كان متفانلاً يفكر في النجاح لا في الفشل .. ينظر الى الأشياء بعين الأمل لا بعين اليأس والقنوط يفكر في النصر دون الهزيمة وفي المبادأة بالهجوم دون الدفاع كما أن عاطفته لم تؤثر في تصرفاته أو أفعاله وانما كان يزن الأمور ويقدر الأشياء ويؤمن بالعدل والمساواة ولم يفقد سيطرته على مشاعره وعواطفه ولم يأخذ الأمور بالمظاهر ، وانما كان يتعمق في حقائقها ويبحث عن أصولها .

المثنى فى ميدان المعركة

مبادئ الحرب وأصولها

للحرب أصول ومبادئ يجب أن يضعها القائد أمام ناظره قبل أن يخوض غمار المعركة ، وهذه الأصول والمبادئ لا تتأثر باختلاف السلاح أو أرض المعركة أو طبيعة المحاربين ، وقد اتفق الكتاب العسكريون على أن هذه المبادئ والأصول ثابتة لا تتغير وانها تراعى فى كل الحروب ، وان الطرف الذى يهتم بها ويدخل المعركة على أساسها يضمن النصر الى جانبه وان مخالفة هذه المبادئ والأصول أو الجهل بها قد يؤدى الى وقوع الهزيمة . وهذا الاجماع ينطبق على حروب المثنى . فحروبه برغم بداءة السلاح قد قامت أساسا على هذه الاصول والمبادئ ، وقد يكون هذا مستغربا ولكن الواقع والحقيقة يؤكدان أن المثنى برغم أنه لم يدرس هذه الأصول والمبادئ فى مدرسة أو كلية عسكرية كما يحدث فى التاريخ الحديث كان ملما بها لأن احساسه كقائد دفعه الى الدخول فى المعارك معتمدا عليها ، ولهذا يؤكد التاريخ أن المثنى نجح كقائد لأنه استطاع أن يخوض غمار معارك ضخمة وكبيرة ضد عدو يفوقه فى العدد والعدة والاستعداد ، واستطاع أن يفوز فى هذه المعارك وأن يعقد لنفسه لواء النصر وأن يوقع الهزيمة بأعدائه .. وان انتصاره فى هذه المعارك يرجع أصلا الى

تمسكه واتباعه مبادئ الحرب وأصولها كما سنوضحه في السطور التالية .

كان المثني يهتم بجمع المعلومات عن عدوه قبل أن يلاقيه في ميدان المعركة ، وجمع المعلومات يسمى بالاستكشاف وكان يعنى الحصول على كل ما فى الاستطاعة من معلومات عن العدو ... عن أحواله وظروفه وعدد قواته . وسلاحه .. ثم عن الأرض التى ستدور عليها المعركة والاستكشاف كان معروفا عند العرب باسم الاستطلاع ، وكانت جماعات الاستكشاف تسمى فى عهدهم العيون وكانت دراسة أحوال الفرس هى أول ما خطر ببال المثني حين فكر فى القيام بغاراته ضدهم ، ولهذا نجده يسعى الى الحصول على معلومات عن أحوالهم وعلى معلومات عن العرب الذين يعيشون فى أرض السواد وعلى معلومات عن العلاقات القائمة بين الفرس والعرب . وتوفرت عنده معلومات كثيرة وضعها موضع الدراسة العميقة مستندا فى دراستها على الخبرة الشخصية.. فماذا تبين له من هذه المعلومات :

ان العجم يعيشون فى اضطراب دائم ، والبيت المالك عندهم فى نزاع مستمر . وبأنهم يسيمون العرب الأذى والظلم . وان العرب يتعرضون لغارات العجم الذين يستغلون ملوك الحيرة الخاضعين لسلطانهم وان قلوبهم نافرة من ظلم العجم . وانهم على استعداد نفسى ومعنوى للتمرد وحمل السلاح فى وجه العجم .

وكانت هذه المعلومات كافية لكى يجمع المثني جموعه

ويُتجهز لدخول معاركٍ متتالية ضد الفرس وهو متأكد أن جبهتهم مضطربة وأن أحوالهم سيئة ، وأن ظروفهم تمهد له طريق النصر والفوز .

وفي موقعة السقاطية تجمعت لدى المثنى معلومات تفيد بأن الجالينوس في طريقه الى كسكر لمعاونة نرسى الذي يتواجد هناك على رأس قوات قليلة العدد ويترقب وصول النجدة اليه في قلق واضطراب وخوف من أن تدممه قوة العرب قبل وصول النجدة .. وبهذه المعلومات رأى المثنى الا تضيع منه فرصة القضاء على نرسى قبل وصول الجالينوس ، وهاجمت قواته نرسى وانتصرت عليه ولاذ نرسى بالفرار وأصبحت القوات العربية جاهزة لملاقاة الجالينوس وحده وكانت كفة النصر قد رجحت لها منذ أول لقاء معه ، ففر من المعركة في باروسيا .

وما أن انتهت معركة البويب حتى أطلق المثنى قواته الخفيفة الحركة (الخيالة) لتقوم باستطلاعات بعيدة المدى وحدد لها مهمتها وطلب منها أن تأتيه بمعلومات عن قواعد الفرس التي يتمنون منها ومراكزهم التي يستندون اليها والأسواق الخاصة بالذخيرة والميرة .

والتقى المثنى في أليس برجلين أحدهما من الأنبار والآخر من الحيرة فاجتمع بهما وسألهما ودلته الانبارى على سوق الخنافس والحيبرى على سوق بغداد ، ثم كانت غاراته على سوق الخنافس وبغداد نتيجة مباشرة للمعلومات التي حصل عليها من الرجلين .

ولقد استفاد المثنى من أسرى بنى تغلب الذين وقعوا في يده في أثناء تقدمه الى صفين ، فحين ضل طريقه ، وكاد رجاله يهلكون طلب من الأسرى أن يدلوه على الطريق ، وأمن أحدهم على أهله وماله فدلّه على حى تغلب حيث وضع سيفه فيهم بعد ذلك وغنم مغانم كثيرة .

وبجانب الاستكشاف يبرز عنصر الحشد وهو من أشهر مبادئ الحرب له تأثير سريع ونتائج فعالة وهو يعنى جمع القوات على قدر الاستطاعة على أن تعمل بكل ما لديها من طاقات ، والتاريخ حافل بأمثلة الحشد الكثيرة ، والأطراف التي تدخل المعركة بقوات كثيفة يكون النصر في أغلب الأحوال في جانبها اذا توفرت بجانب الحشد عوامل أخرى كالروح المعنوية وحسن التنظيم والاعداد ، وكفاءة القيادة ، وكفاءة الخطة .

ولم يغب عن بال المثنى أهمية هذا المبدأ ، فالواضح أنه كان في جميع معاركه يسعى الى حشد أكبر قوة ضاربة تحت قيادته . وحين قرر القيام بالغارات المتعددة على أرض السواد ، حرص على أن تتوفر لديه قوة عددية كبيرة بلغت ثمانية آلاف من قومه وهو عدد لا يستهان به في وقته . وحين لجأ الى أبي بكر يطلب منه العون ، وحين لجأ الى عمر يطلب منه العون أيضا كان يهدف الى تجميع قوة كبيرة تحت قيادته ليخوض بها معاركه .. أى أنه كان يحرص دائما أن تكون قواته أكثر عددا من قوات عدوه . ويلاحظ أنه حين أراد خالد أن يسير من العراق الى الشام جعل ضمن رجاله معظم الصحابة ، وكان المثنى يرى أن وجود

بعضهم ضمن محاربيه يكون ذا أثر كبير على معنويات جنده ، ولهذا تمسك بأن يبقى بعضهم معه فقال لخالد « والله لا أقيم الا على انفاذ أمر أبي بكر في استصحاب نصف الصحابة أو بعض النصف ، وبالله ما أرجو النصر الا بهم فأنى تعرينى منهم ؟ » ، ولما كان خالد على علم تام بأهمية الحشد المعنوى فقد وافق على مرضاة المثنى وأعطاه ما أراد .

وخطبة المثنى فى المدينة عندما اجتمع عمر بالناس يدعوهم الى الخروج الى العراق دليل على اهتمامه الكبير بالحشد وادراكه لأهميته حتى أن أبا عبيد بن مسعود الثقفى وسعد بن عبد الله الأنصارى استجابا للدعوة عندما استمعا الى خطبة المثنى التى بدأها بقوله « أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه » ، واستجاب له من بعدهما خمسة آلاف عربى تطوعوا للجهاد فى العراق .

وأدرك الخليفة عمر أهمية الحشد وأثره بالنسبة للدور الكبير الذى تقوم به القوات العربية فى فارس ، فدعا قبل معركة البويب — حين أبلغه المثنى أن حشوده قليلة وأن موقفه حرج — الى الخروج الى العراق وجمع أبناء بنى بجيلة وكانوا متفرقين فى القبائل ووعدهم بأن يكون لهم ربع ما غلبوا عليه كما رغب عمر جماعة من الأزدي وجماعة أخرى من بنى كنانة كانوا يريدون غزو الشام فى التوجه الى العراق .

وتكررت معاونة الخليفة عمر لقوات المثنى بإرسال الامدادات لها حين أرسل اليه المثنى يبلغه اتحاد كلمة الفرس وحشدهم

القوات الضخمة وقلة عدد جنوده واستعداد أهل السواد للثورة عليه وحاجته الملحة الى قوات كثيفة تعاونه وتشد من أزره ، وبذل عمر جهدا كبيرا حتى أنه جهز جيشا ضخما ، وأراد أن يسير على رأسه الى العراق لولا أن عارضه في ذلك الصحابة فولى سعد ابن أبي وقاص قيادته .

ودعوة المثنى لنصارى بنى تغلب والنسر تعنى أنه كان يسعى الى توافر أكبر عدد ممكن واعداد أعظم طاقة لمواجهة الفرس في موقعة البويب .

واستخدم المثنى في حروبه عنصر المفاجأة يطلق عليه بعض الكتاب العسكريين اسم المباغتة .. ومعناه أن تظهر القوات في ميدان المعركة فجأة دون الشعور باقترابها مما يؤدي الى حدوث ارتباك ورعب في صفوف الأعداء فيضطرون الى القتال في ظروف لا تمكنهم من جمع قواتهم ومواردهم حسبما يتطلب الموقف . والمفاجأة ذات تأثير معنوي كبير فان وقوعها يدخل الخوف في نفوس العدو ، ومتى تملكه الخوف أصبح ضعيف الارادة غير قادر على المقاومة أو الصمود .

عندما استعد العلاء بن الحضرمي لمحاربة المرتدين من أهل البحرين انضم اليه المثنى وفاجأ القوم وهم يعاقرون الخمر وقد أصبحوا لاهين عن أنفسهم فأوقع بهم وهزمهم هزيمة منكرة . ونجاح غارات المثنى على طول ساحل البحر وفي هجر والقطيف حتى وصوله الى دلتا الفرات يرجع أساسا الى مفاجأته لسكان

تلك المناطق فنظام الحرب الذى استخدمه هو الاغارة وهذه تقوم أصلا على المفاجأة والا فقدت أهم مقوماتها .

ومقتل الفيل فى بابل كان مفاجأة للطرفين المحاربين .. كان مفاجأة للعرب فأحسوا أن عقبة كؤودا انزاحت من أمامهم وان مشكلة خطيرة تواجههم انتهت فهاجموا أعداءهم فى قوة وبأس وانتصروا عليهم انتصارا عظيما جرى على لسان أحد شعرائهم فقال ...

يقارعون رءوس العجم ضاحية

منهم فوارس لا عزل ولا ميل

وكان مفاجأة للفرس لأنهم كانوا يعتمدون على الفيل اعتمادا كبيرا فى تفريق صفوف العرب واثارة الرعب بينهم فلما قتل ضاع الهدف من وراء استخدامه وأصبح عليهم مقابلة العرب وجها لوجه .

ومهاجمة نرسى فى باروسما وهو فى معسكره ينتظر وصول المدد ومهاجمة الجالينوس وحده فى السقاطية حققت نصرا كبيرا يرجع الفضل الأول فيه الى مفاجأتهما وهما على غير استعداد لخوض المعركة .

ولقد حرص المثنى خلال تقدمه للهجوم على سوق بغداد على تحقيق المفاجأة ، ولهذا أخفى خبر سيره الى هناك وقال لمرزبان الانبار « انى أريد أن أعبر الى المدائن » ، فأرسل معه الادلاء وعقد له الجسر ليعبر عليه الفرات ، فلما أصبح على مسيرة أربعة فراسخ من بغداد أمر قواته بالمبيت وكلف فرسانه بالقبض على

كل من يعثر عليه حتى لا تصل أخباره الى أهل السوق ، ثم كانت غارته على سوق بغداد ونجاحها .

وغارة المثني على صفين تعطى صورة لأهمية المفاجأة عنده وقد تمت الغارة والناس جلوس في أفنية بيوتهم هادئين مطمئنين لا علم لهم بتحركه اليهم .. لقد أخذ الناس على غرة فسلموا وقدموا الأموال وعاد المثني من هذه الغارة موفور الغنائم .

ولعل من أخطر الأعباء التي تقع على عاتق القائد في الميدان ضمان الأمن والسلامة لقواته، ولذا فالقائد الكفء يضع همه في وسائل توفير الأمن والسلامة ... والمثني كان منذ بدأ قتاله يحرص على سلامة قواته وأمنها ونجده في غالبية مواقعه يتخذ الخطوات الكفيلة بضمنان السلامة والأمن .

فعندما تولى رستم قيادة قوات الفرس أعد جيشين ، وجه أحدهما الى الحيرة والآخر الى ذى قار وكتب الى دهاقي السواد أن يثورا بالمسلمين ودس في كل رستاق رجلا يشور بأهله وكان يهدف بذلك الى احاطة جيش المثني ومهاجمته من الخلف لقطع خط الرجعة عليه ولقطع خطوط مواصلاته مع الجيش العربي الذي يقوده أبو عبيد .. وفهم المثني خطط رستم فما كان غافلا عما يرسمه ويخططه فضم مسالحه وانسحب عن طريق الصحراء حتى نزل بخفان وظل بها حتى جاءه أبو عبيد بجيشه .. وهو بانسحابه يضع سلامة قواته وأمنها في المقام الأول ، فقد كان وضعها الأول خطيرا بالنسبة لها .. لو أن الفرصة سنحت لرستم بمهاجمتها .. وهو بانسحابه يكون قد تجنب اطالة خطوط

مواصلاته مع قاعدته التى يعتمد أساسا عليها وتجنب اطالة المسافة بينه وبين المدد الذى كان فى الطريق اليه وهو بابتعاده عن ملاقاته عدوه كان يسعى الى اكمال حشده حتى يستطيع أن يخوض المعركة فى عدد يتناسب مع عدد عدوه .

وخلال القتال العنيف فى موقعة الجسر شاهد المثنى ما لحق بقومه من النكبات فتناول اللواء وأمر عروة بن مسعود بشد الجسر « انطلق الى الجسر فقف عليه وحل بين العجم وبينه » واصلاح الجسر وشده ووقوف عروة عليه يحول بينه وبين العجم ومهاجمة المثنى للفرس ومعه جماعة من الفرسان خففت حدة الهجوم الفارسى على القوات العربية التى حلت بها هزيمة مرة ومكنت العرب من عبور الجسر .. وهذه الاجراءات كلها كانت تهدف الى انقاذ العرب من القتل بسيف الفرس أو من الغرق فى الفرات .. وهذا يعنى أن المثنى بهذه الاجراءات كان ينشد سلامة العرب وأمنهم .

وقبل البويب كانت قوات الفرس تتقدم ولها صوت وضوضاء وتنبه المثنى الى خطورة ذلك على الجيش المتقدم ، فهو يؤمن بالمفاجأة ويؤمن بسلامة قواته ولهذا يعمل جاهدا على ألا تقع قواته فى الخطأ الذى وقع فيه أعداؤه فيصدر أوامره لجنده « الزموا الصمت » .

وما أن فرغ المثنى من البويب حتى أسرع بإرسال قواته لاختضاع البلاد التى حولها حتى تستقر قواته وتأمين فى مواقعها فبعث جريرا الى نيسان وهلالا الى دستميسان وعزز مواقعه

العسكرية بعصمه الضبي والكليح الضبي وعرفجة بن هرثمة ،
وبهذا التعزيز لمواقع قواته يكون قد اتخذ خطوات ايجابية فعالة
لضمان أمن قواته وسلامتها .

وفي خلال تقدمه الى سوق بغداد حرص على أن تبقى جنده
في مأمن حين أمرها بالمبيت فعين الدوريات لتحرس المعسكر ليلا
وأمر أفرادها بالانتباه واليقظة .

وكان العرب يؤمنون بأهمية **الحصار** الذي يطلق عليه في
حروب العصر الحديث التطويق والحصار هو وسيلة سريعة سهلة
للقضاء على العدو ، فتطويق العدو وحصاره من شأنه أن يجبره
على التسليم لأن القوة المحاصرة تحس أنها قد أصبحت في وضع
ذليل لا يمكنها من العمل .

وأدرك المثنى أهمية الحصار وعرف قيمته وبالرغم من أنه
لم يستخدمه كثيرا في معاركه لأن ظروف هذه المعارك لم تسمح
بذلك وكان أول استخدامه للحصار أثناء مطاردته لقوات الفرس
بعد الانتصار عليها في الحفير فقد ووجه المثنى خلال مطاردته
بحصن المرأة فأمر بحصاره وعين أخاه المعنى قائدا لقوة الحصار ،
ثم تابع تقدمه فقبول بحصن الرجل فحاصره وظل على حصاره
حتى فتحه عنوة وغنم ما فيه ، ولقد ظل حصن المرأة محاصرا فترة
طويلة فلما علمت المرأة — كما روى الطبرى — بسقوط حصن
الرجل استسلمت .

ويعد موقعة الجسر خرج جابان ومعه مردانشاه للملاقاة
ذى الحاجب والانضمام اليه ضد المسلمين فلما علم بذلك المثنى

استخلف على الناس عاصم بن عمر التميمي والقعقاع وخرج يريد القائدين ليمنعهما من الاتصال بذى الحجاب وعند أليس الصغرى التقى بهما فأمر بحصارهما وبعد أن تم الحصار لم يجد القائدان بدا من التسليم فأسرهما المثني .

ومن أُلزم واجبات القيادة أن يحرص القائد على توفير شئون الاعاشة خلال المعارك والجيش الذي لا تتوفر له هذه الشئون يكون في وضع حرج لا يستطيع أن يواصل الحرب ولهذا أثر عن نابليون قوله « أن الجيوش تسير على بطونها » .

ولقد بذل المثني جهده لكي يوفر لجنده ما هم في حاجة اليه حتى يستطيعوا مواجهة عدوهم في قوة وجلد ، وموقعة البويب تشهد له بذلك فالموقعة وقعت في رمضان وكان الجنود صائمين وأدرك المثني أن الصوم قد يقلل القدرة على القتال والصمود فأمر جيشه بالافطار حتى يقوى على عدوه .

ومما لا شك فيه أن غارات المثني المتعددة على سوق الخفافس وسوق بغداد وصفين وتكريت كانت تهدف الى وضع اليد على المغانم الكثيرة التي تشتهر بها هذه المناطق .. هذه المغانم كانت توزع على الجنود فيأخذون نصيبهم العادل منها .

وقبل الغارة على سوق بغداد طلب المثني من المرزبان أن يقدم لجنده العلف والطعام فقدمه لهم وقبل أن يبدأ رجال المثني الهجوم قال لهم « أيها الناس أطعموا وتوضأوا وتهأأوا » ، فعلق الناس خيولهم وتناولوا طعامهم وأصبحوا في حالة نفسية طيبة مهيبين لشن الغارة .

ومن الشائع فى تاريخ الحروب أن الجيش الذى ينتصر على عدوه يسعى الى تأكيد هذا النصر بالقضاء قضاء مبرما على قوات عدوه ولهذا يهتم القادة باصدار الأوامر عقب انتهاء المعركة بمطاردة العدو واللحاق به حتى لا تسنح أمامه فرصة إعادة تنظيم قواته والعودة من جديد للقتال فيكون شوكة فى جنب الجيش المنتصر يجب ازالتها بعملية أخرى .

والجيش المهزم الذى يفر من أرض المعركة يكون عادة فى حالة معنوية سيئة ، فاللحاق به ومطاردته تؤديان الى انهياره نهيارا تاما فلا يستطيع بعدها تنظيم نفسه أو العودة الى القتال . ومن هنا برزت قيمة المطاردة وأحس المثنى بأهميتها فاستغلها استغلالا بعيدا فى حروبه .

فحين هرب جنود هرمز من الحفير بعد انهزامهم بها لاحتقهم المثنى وطاردهم واستولى خلال مطاردته لهم على حصنى المرأة والرجل . وحين هرب الفرس من بابل بعد انهزامهم تبعهم المثنى الى المدائن وصار يقتلهم فى الطريق .

وحين علم المثنى بخروج جابان ومرادنشاه للانضمام لذى الحاجب خرج وراءهما وظل يلاحقهما حتى أسرهما .

ولعل القارىء يلمس خلال هذه الدراسة لحروب المثنى ان المتعمق فى دراسة حروب المثنى يلمس حقيقة هامة وهى أنه كان يعتمد فى حروبه على الكيف دون الكم أى يعتمد على امكانيات الرجال وقدراتهم ومشاعرهم ومعنوياتهم دون الاعتماد على عددهم أو كثرتهم .. ومن عجب أن الاعتماد على الكيف فى

الحرب أصبح الأساس الأول لكل المعارك والحروب ، فقد أهمل العسكريون نظرية الكم لأنهم وجدوا أن الكثرة العددية لا تضمن النصر وان السلاح في يد ضعيفة لا قيمة له وان القلب الخالي من الايمان لا يصمد في معركة ، وان النفس الضعيفة الخائفة لا تجسر على طول المقام في الميدان .

ولقد آمن المثني بنظرية الكيف — برغم تقدم عصره — ايمانا بعيد المدى وكان بذلك سباقا ، فقد أدرك أن القدرة على القتال ومواجهة الأعداء تتوقف على ما في الرجال من بسالة وحماس وجلد ومثابرة وعزم ونظام واحترام وهمة وارادة وتضحية وانكار للذات ودراية ومعرفة وخبرة وكفاءة .

ولقد اهتم المثني اهتماما بالغاً بنفسية رجاله حتى أصبحوا قادرين على مواجهة الأحداث بما فيها من مخاطر قادرين على خوض المعارك والعيش في أهوالها دون أن تهتز أيديهم وهى تحمل سيوفهم أو ترتعد قلوبهم وهم يتعرضون لمفاجآت المعركة وما أكثرها .

ان قوات المثني كانت على درجة عالية من المعنويات .. روحها متوثبة .. راغبة في القتال .. مشتاقة اليه .. مقدمة عليه .. ولعل هذا هو سر النجاح الكبير الذى أحرزته قواته في غالبية معاركها فقد كان يداعبهم وهم يقاتلون أحد أملين عظيمين.. نصر حاسم يحفظ للاسلام والمسلمين الهوية والتقدير أو موت واستشهاد في سبيل الله والدين .. يقول المثني لرجاله حين سمعهم يرددون في خوف

واضطراب وقلق « ما أسرع القوم في طلبنا » ، « لو أدركوكم لقاتلتهم لاثنتين .. التماس الأجر ورجاء النصر » .

ان المثنى يقول للمسلمين « لا يعظمن عليكم هذا الوجه (يقصد الفرس) فقد تبجحنا ريف فارس وغلبناهم على شقى السواد وشاطرناهم واجترأ من قبلنا ولها ان شاء الله ما بعدها » . فتشير كلماته مشاعر الناس فيقوم أحدهم ويقول « انما كان قعودنا عن غزو هؤلاء الفرس الى يومنا هذا شقشقة من شقاشق الشيطان ، وانى قد وهبت نفسى لله » . وتلتهب حماسة الناس وترتفع روحهم فيتقدمون للتطوع حتى يبلغ عددهم خمسة آلاف .

والمثنى في البويب يبعث الى بنى عجل — وقد رأى خلافا في صفوفهم — قائلاً « ان الأمير يقرئكم السلام ويقول لا تفضحوا المسلمين اليوم » فتثور حميتهم وتزداد حماستهم ويقولون في صوت كالرعد « نعم » ، ويقتل مسعود أخو المثنى خلال القتال فلا يهز موته قلب أخيه ، وانما يستمر في قيادة المعركة وهو يخاطب الناس « يا معشر المسلمين لا يرعكم مصرع أخى ، فان مصارع خياركم هكذا » ، وما أبلغ هذه الكلمة في موقف حرب عصيب ، وما أوقع تأثيرها في قلوب المقاتلين ، وكم شددت معنوياتهم وحرضتهم على عدوهم .

وها هو ذا المشى فى مقدمة جنده يدعو لهم بالنصر ويرسل اليهم من يشجعهم ويحميهم ويقول لهم « عاداتكم فى أمثالكم انصروا الله ينصركم » .

وفى موقف الشدة يتجه المشى الى ربه الذى وعد المؤمنين النصر فيذكر جنده بوعد الله ويخاطب ايمانهم قائلاً « ثقوا بالله واحسنوا به الظن فقد نصركم فى مواطن كثيرة وهم أكثر منكم وأعز » ، و « أيها الناس احمدا الله وتناجوا بالبر والتقوى ولا تناجوا بالاثم والعدوان وانظروا فى الأمور وقدروها ثم تكلموا » .

ختمام

أما بعد ...

فهذا هو كتابي عن المثنى بن حارثة وغاية ما أرجو أن أكون
قد وفقت في اعداده ليظهر بصورة تتناسب مع شخصية المثنى
كرجل دين وحرب وكمجاهد من المجاهدين الأبطال الذين خدموا
الدين بهمة تذكر فتشكر ، وخدموا الحرب بقدر جليل لا يتكرر .
ويشهد الله اننى قد بذلت غاية ما وسعته طاقتى وما قدر عليه
جهدى رغبة فى أن أقدم للمكتبة العربية وللباحثين والدارسين
ورجال الحرب بحثا مفيدا .

والله الموفق الى سبيل الرشاد وخير العباد .

محمد فرج

المراجع

(رتبت المراجع هنا حسب الحروف الأبجدية)

أشهر مشاهير الاسلام في الحرب والسياسة	رفيق العظيم
الاستيعاب	ابن عبد البر
البيان والتبيين	الجاحظ
السيرة العمرية	ابن الجوزي
الصديق أبو بكر	محمد حسين هيكل
العبرية العسكرية في غزوات الرسول	محمد فرج
العرب قبل الاسلام	جرجي زيدان
الفاروق عمر	محمد حسين هيكل
الفتوحات الاسلامية	أحمد بن دحلان
بلوغ الارب	الألوسي
تاريخ الأمم والملوك	الطبري
تاريخ الأمة العربية	محمد أسعد أطلس
تاريخ العرب القدامى	محمد فخر الدين
تاريخ الكامل	ابن الأثير
تاريخ اليعقوبي	أحمد بن يعقوب
تجارب الأمم	ابن مسكويه
جبابرة حرب	محمد فرج

خالد بن الوليد	صادق عرجون
خلفاء محمد	عمر أبي النصر
وسائل نادي المشي	عبد الستار فرغولى
سيف الله خالد	محمد فرج
سيرة ابن هشام	ابن هشام
فتوح الاسلام	الواقدي
فتوح البلدان	البلاذري
مروج الذهب ومعادن الجوهر	المسعودي
معجم البلدان	ياقوت الحموي

الباب الثاني

بنو شيبان بين الاسلام والردة

٣٤	اسلام بنى شيبان
٣٤	الاتجاه الأول
٣٧	الاتجاه الثاني
٤١	عامل المسلمين على البحرين
٤٢	الردة
٤٤	الردة فى البحرين
٤٦	لواء العلاء بن الحضرمى
٤٦	حصار الجارود
٤٧	تحرك العلاء الى البحرين
٤٩	انتصار المسلمين
٥١	دور المثنى

الباب الثالث

أرض السواد والحيرة

٥٤	أرض السواد
٥٥	مملكة الفرس
٥٧	لماذا أغار المثنى على السواد
٥٨	أولى غارات المثنى
٥٩	الحيرة

صفحة	
٦١	أبو بكر وفكرة الفوز
٦٢	أبناء المثنى
٦٤	لقضاء المثنى وأبو بكر
٦٦	مشاورات أبي بكر
٦٧	جيش خالد
٦٩	المثنى الجندى
٧٠	كاظمة
٧٢	حضن المرأة
٧٢	المبذار
٧٣	معمارك أخرى
٧٤	القيادة للمثنى

الباب الرابع المثنى في العراق

٧٨	موقعة بابل
٧٨	المثنى القائد
٧٩	تقدير الموقف
٨٠	جيش الأعداء
٨٠	التحرك العربى
٨١	خطاب الفرس ورد المثنى
٨٣	الفيصل

صفحة	
٨٣	أثر الواقعة
٨٣	في جانب الفرس
٨٥	في جانب العرب
٨٧	موقعة النمارق
٨٧	لقاء أبى بكر ووصيته
٩٠	الدعوة الى الخروج
٩٢	الموقف فى الحيرة
٩٣	رستم
٩٤	موقف المنى
٩٦	القيادة لأبى عبيد
٩٧	اللقاء
١٠٠	موقعة السقاطية وباروسيمما
١٠٠	الأعداد للمعركة
١٠١	المعركة
١٠١	الطاردة
١٠٢	القائد العربى وجنده
١٠٥	موقعة الجسر
١٠٥	راية كسرى
١٠٦	مواقع القوات
١٠٧	الخطأ الأكبر
١١٠	القتال

صفحة

١١١	مقتل أبى عبيد
١١٣	الكارثة
١١٤	قيادة المثنى وبطولته
١١٦	بطولة نصرانى
١١٧	القضاء على المطاردين
١١٧	عمر وأنباء الهزيمة
١١٩	الجسر ومؤتة
١٢١	موقعة البويب
١٢١	الحشد العربى
١٢٤	موقف الفرس
١٢٥	الاعداد للمعركة
١٢٧	القتال
١٣٠	بعد المعركة
١٣١	منطق البطل
١٣٢	شعر المعركة
١٣٣	النساء فى المعركة

الباب الخامس

غارات المثنى

١٣٨	الخنافس
١٣٨	اعادة تنظيم القوات
١٣٩	سوق الخنافس

صفحة

١٤٠	سوق بغداد
١٤٦	صفيين
١٤٧	ماذا فعل المشنى
١٤٨	الإشارة على تغلب
١٤٨	تكريرات
١٤٩	نتائج هذه الغارات
١٥١	تولية يزيدجرد
١٥٣	خطة المشنى
١٥٤	جيش سعد
١٥٦	نهاية المشنى

الباب السادس

المشنى القائد

١٥٨	من عوامل الفتح العربى
١٥٨	مبادئ الاسلام الخالدة
١٥٩	دور أبى بكر وعمر
١٦٠	القيادات الناجحة
١٦٣	المشنى وفن القيادة
١	صفات القائد
١٦٥	الايمان
١٦٨	الثقة بالنفس والاعتماد عليها

صفحة

١٧٠	قوة الارادة والتصميم القاطع
١٧١	القيادة
١٧٣	التواضع
١٧٤	تقدير الموقف
١٧٦	الاقدام
١٧٦	القومية
١٧٧	صفات اخرى
١٧٩	مبادئ الحرب واصولها في حروب المشى
١٨٠	الاستكشاف
١٨٢	الحشد
١٨٤	المفاجاة
١٨٦	الامن وسلامة القوات
١٨٨	التطويق
١٨٩	شئون الاعاشة
١٩٠	المطاردة
١٩٠	الكيف دون الكم
١٩٥	الختام
١٩٧	سجل المراجع

للمؤلف

كتب في التاريخ :

- جبابرة حرب الناشر دار الفكر العربي
محمد المحارب (الطبعة الأولى والثالثة) الناشر دار الفكر العربي
(الطبعة الثانية) الناشر شركة التوزيع المصرية
العسكرية العسكرية في غزوات الرسول الناشر دار الفكر العربي
سيفت الله خالد الناشر دار الفكر العربي
عمرو بن العاص الناشر دار الفكر العربي
السلام والحرب في الاسلام الناشر دار الفكر العربي
أحاديث في الحرب الناشر سلسلة اخترنا للجندى
السلام في الاسلام الناشر سلسلة دراسات اسلامية
المثنى بن حارثة الشيباني الناشر سلسلة أعلام العرب

كتب في السياسة :

- نهاية الطاغية الناشر دار النداء
قصة الجلاء (الطبعة الأولى) الناشر ادارة الثقافة بالجيش
بتكليف خاص
(الطبعة الثانية) الناشر دار الفكر العربي
الاشاعات الكتاب الفائز في المسابقة الناشر ادارة الشؤون العامة
الثقافية بين ضباط الجيش والتوجيه المعنوي
النضال الشعبي في سوريا الناشر سلسلة كتب قومية
العدوان الثلاثي (الكتاب الفائز في مسابقة مصلحة الاستعلامات)
مصلحة الاستعلامات)

النضال الشعبى ضد الحملة الفرنسية الناشر سلسلة كتب ثقافية
الثورة المصرية واثرها فى سياسة الشرق الناشر ادارة الشئون الصاعدة
والأوسط والتوجيه المعنوى

التطور السياسى فى الهند والصين — — الناشر سلسلة كتب ميسامية

النضال الشعبى ضد حملة فريزر — — الناشر سلسلة كتب قومية

القوات المسلحة فى ضوء الميثاق — — الناشر سلسلة اخترنا للجندي

يمنيات — — — — الناشر سلسلة اخترنا للجندي

على الطريق الى وحدة الهدف — — الناشر دار الفكر العربى

كتب فى القصة :

علم هى الحياة الناشر دار النشر الحديثة

قلوب محطنة الناشر دار الفكر العربى

بطولة فدائية الناشر دار الفكر العربى

الثناس موسمية الناشر دار الفكر العربى

أعلام العرب
الكتاب القادم

مظفر الدين كوكبوري
أمير إربل

تأليف
عبد الفادر أحمد طليمات
يصدر في ٧ أغسطس ١٩٦٤

يطلب من
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفيحالة"
المن ٥ قروش

طبعة مصر